دولة الإسلام الكبرى

دراسة في

الجغرافيا السياسية

الدكتور : صــلاح الدين علي الشامي

تمهيد : ـ مفهوم الدولة :

ـ عرف العالم ـ في بعض مساحات بعينها ـ قيام دولة أو دول منذ وقت طويل ، وكان للدولة شكل ووضع معين يمثل استجابة لحاجة الناس فيها من وجهة النظر التنظيمية على الاقل ، وربما طرأت تغيرات عديدة على هذه الدول مع مرور الوقت ، وتناولت هذه التغيرات شكل الدولــة ومركزها القانوني والتنظيمي في اطار مجتمع الدول ، وقد نجـد الآن جملة نظريات تعالج هذا كله ، وتحاول أن توغل عمقا وبحثا في مجال تقصي المقومات الاصيلة للدولة ، وفي مجال دراسة المواصفات المميــزة لهــا (١) •

ـ هذا وقد لانجد مبررا لكي نتخذ من نظريات اليوم في عالم معقد تتصاعد فيه المشكلات ويتعاظم الصراع بين الدول ، مقياسا صادقا لتقويم دول أو نظام يضم مجتمعا من الدول في الماضي البعيد ومنذ أكثر من عدة قرون ، ومع ذلك فان ثمة قدر مشترك من المقومات نتمثله في الشكل العام للدولة على مر العصور • ذلك أن الدولة ـ كل دولة ـ تنشأمتخذة وضعها السوي ومركزها القانوني وشكلها المقبول في اطار مجتمع الدول من خلال ثلاثة أبعاد ساسيةومحددة ، وتحقق هذهالابعاد مانقصد به القدر المشترك من المقومات بين كل الدول في كل وقت وفي كل مكان ، وهذه الابعاد هي : ١ ـ البعد البشري ، ٢ ـ والبعد الطبيعي ، ٣ ـ والبعد التنظيمي • ومن ثم نتبين بكلمات سهلة أن الدولة تتألــف من ناس ومن أرض ومن حكومة • وكانت الحكومة لكي تنظم أوضاع الناس وحياتهم ، وتؤكد حيازتهم للارض وتصون انتفاعهم بها •

ـ ويتجلى البعد البشري من خلال فكرة مثلى تتبلور من حولها مصالح ومنافع وتستقطب تجمع بشري معين ، وقد يكون تجمع هذا الجمع الذي يتخذشكل الشعب او الامة ، وليد عوامل‌كثيرة نابعةمن منطق تمليه هذه الفكرة المثلى ، ومن ثم‌يظهر الشعب أوالامة مترابطاترابطا منطقيا ،وتستقطب‌الفكرة الجامعة ولاء هذا التجمع البشري المترابط ، وصولا الى حد التضحية بكل الرضا بالنفس والمال‌والولد دفاعا عن الدولة ، وصيانة لها وحفاظا على كيانها ووضعها في مجتمع الدول • ويملأ الناس الحيز من الارض التي تقوم عليها الدولة ويتعلقون بالتراب ويعتزون بالوطن ، ويكفل ذلك كله مصالحا مشتركة على هذه الارض وتجعل منهم بنية بشرية متماسكة تستشعر العزة والمنعة من خلال هذا التماسك •

ـ هذا ويرتبط البعد الطبيعي الداخل في تركيب هيكل الدولة بمساحة معينة من الارض ، وبصرف النظر عن مدى اتساع هذه المساحة يتخذ منها التجمع البشري وطنا عزيزا في اطار حدود معينة ، وتمثل الارض ـ عندئذ ـ المجال الحيوي للناس كاصحاب للمصلحة الحقيقية فيها ، وهم ينتفعون بالموارد المتاحة فيها ويختلط ترائهم بترابها ويعتزون بها ، بل قد تكون الارض وكانها الوعاء الذي يحتوي بكل الحنان الشعب أو الامة ، ويحفظ لهم مصالحهم المشتركة والخاصة • وبقدر مايكون تماسك الامة أو الشعب أو تكون صلابة البنية البشرية مطلوبة بالحاح ، يكون التمسك بالارض والولاء للتراب والوفاء للوطن ضرورة حاسمة ، ومن ثم يعتز الناس بالارض وتعتز بهم ، ويصبح من شان هذا الاعتزاز قبولا بكل الولاء قيام الحكومة •

ـ وتمثل الحكومة النابعة من خلال ارادة الناس على الارض وارتباطهم بترابها البعد التنظيمي الذي يتمم الشكل القانوني والوضع السوي في الدولة ، وتتحمل الحكومة بالضرورة مسئوليتها في الخارج أيضا دفاعا عن مصالح الدولة في مجتمع الدول ودرء العدوان عليها ، وبصرف النظر عن شكل الحكومة ونمط الحكم والتنظيم الحاكم ، فانها تاتي في قمة التعبير عن ارادة الدولة ، ويكون قبول الشعب أو الامة بالحكومة وما تفرضه من نظام وتنظيم من قبيل الحرص على المصالح والاعتزاز بالذات ، وهذا معناه أن الشعب أو الامة تتخذ من الحكومة تعبيرا عن سيادتها على الارض ، وقد يترتب على ذلك أن يكون في مقدور الامة أن تغير الحكومة شكلا وموضوعا ، من غير أن يفقد التغيير الدولة وضعها ، أو يؤثر على جوهر وجودها في مجتمع الدول •

ـ ومهما يكن من امر فقد نجد ثمة حاجة لان نطل على دولة الاسلام لكي نتبين كيف صيغت من أساسها (١) ، والمفهوم أن هذه الدولة قدر الله لها أن تكون من خلال جهد بناء أرسى دعائمه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ثم حمل المسؤولية من بعده مجموعة الافذاذ من أمراء المؤمنين ، ولئن تعاظم شان هذه الدولة في مجتمع الدول فليس من المعقول أن نطل عليها بمفاهيم ونظريات القرن

العشرين ، ولايستهدف الباحث تقصي نمط من انماط التطابق بين دولة كانت منذ نيف وثلاثة عشر قرنا من الزمان وبين دول هذا الزمان الذي نعيش فيه ، وقد تمثل في حد ذاتها مرحلة من مراحل التطور ولعلها أسهمت ببعض النتائج التي ارتكزت اليها بعض القواعد والاصول الدولية ، ومع ذلك فان أهم مايستهدفه البحث أن نتحسس واقع هذه الدولة التي أقامها الاسلام وألبسها وضعا قانونيا وأكسبها الشكل المقبول في اطار مجتمع الدول ، ومن ثم نتبين العبقرية الفذة في التكوين والقدرات المتفوقة في التنظيم الحاكم الذي تحمل المسؤولية تجاه تكوين الامة مرة ، وتجاه حيازة الارض التي عاشت عليها مرة أخرى ، ويحدونا الامل لكي نستنبط النتائج ، فندعم القول الذي أكد وما زال يؤكد أن الاسلام دين الدولة في وقت واحد ، وأن الصلة بينهما عضوية قبل أن تكون موضوعية •

ـ هذا وقبل أن نعالج هذا الموضوع من خلال نظرة كاشفة للدرجة القصوى من حرص صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم على تجميع شمل المسلمين وصياغة البنية البشرية السوية وتكوين أمة وحرصه على حيازة الارض التي تتخذ منها الامة قاعدة ووطنا ، وحرصه على فرض التنظيم الحاكم الذي يتمم شكل الدولة السوي ، يهمنا أن نضع في الاعتبار دور الاسلام في ذلك كله وعلى اعتبار انه المنطلق والاساس ، ويمكن أن يتكشف لنا دور الاسلام وما بني عليه من ابداع من خلال دراسة مقارنة سريعة وكاشفة ، تبرز وضعه المتميز بين كل الادوار التي لعبتها ديانات سماوية ورسالات سابقة في مجال اقامة الدولة والاسهام في مقوماتها وفي مجال تنظيمها الحاكم في الداخل والخارج •

الرسالات السماوية واقامة الدول :

ـ ليس المقصود أن ندخل البحث في منعطف صعب لكي نقتفي الاثر ونقارن بين دولة يهودية ودولة مسيحية ودولة مسلمة ولكن الهدف الحقيقي هو التعرف على القدر الذي أسهمت به الرسالة السماوية عندما طوعت الناس لكي تكون دولة ، بمعنى أن نتبين العامل الديني بين مجموعة العوامل التي شكلت الوجود الفعلي لدولة في مجتمع الدول ، ذلك أن الصلة بين الدين والدولة تكون عضوية في بعض الاحيان • وقد تكون عفوية وغير عضوية في بعض الاحيان الاخرى •

ـ وكانت اليهودية رسالة موسى عليه السلام من السماء أول الرسالات التي تستحق الاهتمام وقد عاشت كرسالة وعقيدة تجمع شمل المؤمنين بها أول ماعاشت في أحضان مصر • وما من شك في أنها جمعت كل أولئك الذين اتخذوا منها سبيلا للتقوى والرشاد ووسيلة للخلاص من نمط الحياة البغيضة في مصر • ومع ذلك فان هذه الجموع وقد عرفت في مصر معنى الدولة وشكلها القانوني ،

واستشعرت نمط التنظيم الحاكم وتحسست قيمته الفعلية وتبينت منطق الولاء والاعتزاز بالارض لم تستجب استجابة تلقائية لاقامة دولة ، ذلك أن الخروج من مصر وفرارهم بعقيدتهم في مرحلة من مراحل الدعوة قد استهدف بالفعل سعيا ملحا لحيازة أرض يلوذون بها • ولكن سعيهم الذي افلح بعد حين في حيازة الارض مكانا وقاعدة لايقترن اقترانا مباشرا وتلقائيا بقيام دولة تحتـــويهم وتعبر عن وضعهم وارادتهم • بمعنى أن اليهودية جمعت الناس فاذا بهم شعب ، وحازت الارض مكانا لهـــذا الشعب ولكن لم يتصاعد الجهد مباشرا وصولا الى نشاة ذلك التنظيم الحاكم لكي تكون الدولة وتتخذ شكلهـــا العام •

ـ هذا وقد تاخر بالفعل قيام دولة اليهودية بعض الوقت (٣) ، ولئن كانت ثمة مؤشرات تنبيء بان موسى قد بذل الجهد أو سعى اليه أو أراده في هذا الاتجاه ، فان اليهودية التي صنعت شعبا لـم تفلح في التوفيق السريع بين الدين والدولة ، ثم كانت دولة يهودية عندما قامت في وقت لاحق لموسى صاحب الدعوة استجابة مباشرة لروح الانغلاق الذي فرضه اليهود على اليهودية • ومن ثم اتخـــذت الدولة شكل الوجود المنطوي الشاذ حتى لم يكن لها عندئذ الوضع السوي في مجتمع الدول • ويمكن القول أن اتحاد مجموعة القبائل العبرية في كيان يكون دولة كان يلقى معارضة ورفضا من فريق كبير منهم • بل لقد كان قبول الفريق الاخر على مضض • واقترنت النشاة والوجود بانقسام واضح بـــين السلطة الزمنية في الدولة وبين السلطة الدينية • وكان صراعا فيما بينهما حيث سعت السلطة الدينية دائما الى تضييق الخناق على السلطة الزمنية (٤) وعدم التوافق بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية أهم سمة تكشف عن عدم الترابط العضوي بين الدين والدولة • ويعتقد بعض البـــاحثين أن عدم التوافق يمثل نزعة عامة ترجع في جذورها الاصولية الى فكر موروث من روح البداوة التي عاشتهـــا القبائل العبرية ، ويصورون الكهانة والنبوة التي كانت كرد فعل مباشر معاكس للسلطة الحاكمـــة المطلقة في الدولة اليهودية •

ـ وبصرف النظر عن كونها دولة قامت في اطار المنطق المغلق الذي فضل الانطواء وغلفها بكـــل معاني الخصوصية ، فان اليهودية في حد ذاتها قد فشلت في اطار تنسيق العلاقة بالدولة ولم تفلح مرتين وهي لم تفلح اول مرة في اعطاء الدعوة الى الله صفة العالمية من خلال انفتاح ، بل أقامت من حولهـا سياجا وحجابا • وتعلق جمع الشعب اليهودي عندئذ باستعلاء ممقوت ومكروه عندما صوروا أنفسهـم شعب الله المختار • كما لم تفلح اليهودية مرة ثانية في صياغة الفكـرة المشعـــة التي تستقطب ولاء الشعب وتشدهم وتحفزهم للحفاظ على الدولة والتمسك بها • وكان شان الدولة اليهودية عندما قامت اول مرة منذ آلاف السنين شان جزيرة في بحر من البغضاء والرفض • وقد استطاع المد الكاره لاستعلاء الشعب اليهودي أن يطغى عليها فيغرقها •

دولة الاسلام الكبرى
في
الموقع الجغرافي الحاكم

ـ وربما لم يكتب لهذه الدولة اليهودية أن تعيش طويلا لاننا نفتقد في تكوينها المقومات الاصيلة التي تكفل لها الوجود السوي المستمر (٥) وقد تمزقت أوصالها من داخلها وكان البناء البشري كان غير سوي لانه تعرض لصدوع نجمت عن ذلك الصراع الخطر بين السلطتين الدينية والزمنية فيها • واصبحت الدولة اليهودية من بعد التمزق دولتين ، واقترن الانقسام بقدر كبير من عدم التوافق بين الدولتين • ثم ترددت الاوضاع فيهما معا من بعد أن اهتز الكيان هزات عنيفة حتى كان العدوان المدمر عليهما ، ومن ثم تبدد شمل الشعب اليهودي وسقطت الدولة من أساسها • وكان السقوط نتيجة غير مباشرة للعجز في مقومات التكوين ، واقترن العجز بالخلل حتى اذا ماانهارت الدولة جاء الانهيار مشفوعا بالتشتت الفعلي على أوسع مدى ومؤديا الى الضياع • وهذا معناه أن رسالة اليهودية لم يترابط وجودها ترابطا عضويا بدولة الى حد كبير ، ولن يتمكن الشعب اليهودي أن يطوع ذاته وأن ينتزع من اليهودية المقومات الكفيلة بدعم الوجود المادي لدولة سوية •

ـ ولئن افتقدنا في تراث الشعب اليهودي صدى الجهد البناء الذي بذله موسى عليه السلام لكي تتعمق الصلات بين الناس الذين تجمعوا من حوله وآمنوا برسالته وبين الارض التي أدخلت في حيازتهم حتى تكون حكومة ودولة سوية ، فان رسالة المسيح بن مريم عليه السلام لم تكن في يوم من الايام كما لم يكن في صميم تقاليدها وتراثها العقائدي ماينبيء باقامة دولة أو بمقومات تقيم دولة المسيحية • وما من شك في أن المسيحية قد سعت بكل الحب والملاينة الى اشاعة مكارم الاخلاق ، ومع ذلك فانها عندما عملت على تهذيب الفرد وسعت الى تقويم الاعوجاجات الخلقية لم تلجأ الى ابتكار فكرة نيرة تستقطب الافراد لكي يتألف من الجمع المهذب بناء بشري متماسك له شكل وخصائص الشعب أو الامة •

ـ ومهما اختلف الباحثون فيما بينهم فان الاتفاق يؤكد أن النصرانية قد أولت كل اهتمامها للفرد وليس غيره ، وربما أخذ الناس كلهم أو بعضهم بتعاليم المسيحية وتنصروا في دولة ما أو في مجموعة دول ، وربما لعبت النصرانية والكنيسة دورا في تاريخ هذه الدولة أو الدول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، ولكن ذلك كله لايعطي المسيحية فضلا في جمع شمل النصارى من أجل تكوين أمة • كما لم تسع من صميم مفاهيمها لانتزاع الاسس والمقومات لاقامة دولة تحتوي جمعهم • وكانت سلطة الكنيسة في اطار الدول التي تنصرت الشعوب والامم فيها دينية أولا وقبل كل شيء ، ولم تفلح بعض المحاولات التي اقحمت رجال الدين على السلطة المدنية الحاكمة • بل ربما بني على ذلك نمط من أنماط عدم التوافق ، وحدث في بعض الحالات التي تأتي فيها التوافق بين سلطة الكنيسة ورجال الدين وسلطة الدولة رفض لذلك التوافق من جانب الشعب المسيحي على اعتبار ماإقترن به من تسلط بغيض •

ـ هكذا كانت الدولة مسيحية بالشكل فقط وعلى اعتبار أن معظم أو كل الناس فيها قد تنصروا ، فهم رعايا الدولة من حيث المواطنة ومن أتباع الكنيسة من حيث الديانة والمعتقدات • وهذا معناه أن

رسالة المسيحية لم تطوع من صميم تقاليدها ومثلها العليا فكرة مجردة نيرة تشد الجموع وتستقطب الاتباع لكي يتالف منهم البناء البشري ، ومن ثم يملأ الحيز في مساحة من ارض لكي تكون دولة مسيحية نابعة من ارادة الدين في أي وقت من الاوقات او في أي مكان من العالم ، والغريب أن يحدث ذلك في نفس الوقت الذي اتخذت فيه المسيحية أسلوبا عالميا لنشر معتقداتها • وقد نجد العكس تماما اذا ماتحسسنا الوضع القائم في دولة الفاتيكان ، ذلك أن وجود هذه الدولة يعبر عن درجة قصوى من درجات الضمور بعد أن عجزت الكنيسة في الاحتفاظ بوجودها المتلائم والمتوافق مع الاوضاع المدنية في دول كثيرة وعجزت بالمثل في التصدي للتحديات التي واجهتها ، وقد تصدى بعض المسيحيين من دول أوروبا للكنيسة ولرجال الدين المسيحي وكانت ثورة أو ثورات عارمة • وتصاعدت الثورات دائما بالرفض وعدم الاذعان للكنيسة وربما ليس للمسيحية في حد ذاتها ، وينهض هذا الرفض وعدم الانصياع دليلا على وضع لاتحسد الكنيسة عليه ، بل قد يكشف هذا الرفض سلبا وايجابا عن عجز فعلي في مجال استخلاص الاسلوب الامثل الذي ينشيء مادة لاحمة تجمع شمل المسيحيين وتقيم صرح أمة ويكون من بين مقومات دولة • ودعا هذا الفشل لان تتردى الاوضاع في الكنيسة ولاذت المسيحية بما اكتسبته من حق الوجود في شكل رمزي بحت في قلب روما •

ـ وكان الوجود الفعلي لاي تجمع بشري سواء تمثل في شعب أو في أمة في دولة من دول أوروبا التي وصفت بانها مسيحية في العصور الوسطى ، قد تاتي تحت ظروف معينة وعوامل ليس من بينها عامل واحد فرضته المسيحية أو تقاليدها • ومن ثم كانت الفكرة التي استقطبت الناس نابعة من معين غير معين المسيحية ، وكان اعتناق هؤلاء الناس المسيحية كلهم أو معظمهم مجرد مظهر حضاري بحت ، ويمكن القول أن المسيحية لم تجد من بين أهدافها هدفا يرمي الى تكوين أمة مسيحية • بل تركت لهذا التكوين أن يكون تلقائيا وفقا للصيغة التي تنشئها مجموعة العوامل الكامنة في الخلفيات التي تتمخض عن الفكرة النيرة التي تستقطب الولاء وتجمع الناس ، كما نتبين أن المسيحية في جوهرها الاصيل لم تخطط لقيام دولة أصلا ، وليس في تعاليمها أي نمط من أنماط التنظيم المبدع الذي يمكن أن يرتكز اليه نظام حاكم في دولة •

ـ هكذا كانت المسيحية عاجزة مرتين ، فهي عاجزة ولاتكاد تسهم بابداع أو ابتكار صيغة من صيغ تكوين شعب أو أمة ، وهي عاجزة ولا تكاد تسهم بابداع أو ابتكار تنظيم عقائدي بناء يكون حجر الزاوية في تكوين دولة بالفعل ، ومن ثم هو عجز أصولي حتى أن المسيحية لم تفلح أبدا في اقامة البرهان أو الدليل على درجة من درجات الترابط العضوي بين الدين والدولة •

ثم جاء دور الاسلام فكانت رسالته المثلى وكانت صيغة متميزة تماما ، وبنى على تلك الصيغة وضع مختلف تماما عن الوضع الذي تمخضت عنه اليهودية أو الذي تاتى في كنف المسيحية ، وكان التحرك

الاسلامي متميزا بالفعل من كل الوجوه ، وهو تحرك متميز بناء عندما يولي الفرد المسلم الاهتمام والرعاية من خلال تربية خلقية ترضاها تعاليمه وتقاليده ومثله العليا ، وهو تحرك متميز بناء أيضا عندما يوجد الصيغة التي تؤلف من مجموعة الافراد المؤمنين الصالحين بنيانا بشريا متماسكا يكون الامة بكل معانيها وأبعادها الاصولية • ولا يقف الامر عند هذا الحد بل نجد التحرك متميزا بناء مرة ثالثة عندما يدخل في صميم اهتمامه حيازة الارض متخذا منها قاعدة لتجمع هذا البناء البشري السوي ، ثم تتصاعد ميزته العظمى عندما يشكل هذا التحرك البناء نظاما حاكما نابعا من صميم الدين وتقاليده ومثله العليا ، ويكفل ذلك كله قيام دولة يكون لها الشكل القانوني المقبول في مجتمع الدول •

ـ وكان طبيعيا وضروريا أن يكون اهتمام الاسلام رعاية للفرد وتقويما للخلق وانتشاله للافراد من الجهالة ، على أمل أن تكون اللبنات القوية في بناء بشري سوي ، كما كان طبيعيا وضروريا أن يجيء اهتمام الاسلام باقامة دولة مؤمنة تجمع شمل الامة الاسلامية وتصبح قاعدة لانطلاق متحمس على أمل اشاعة نور دعوته الخيرة عاليا • وسار الاسلام بأمور الدنيا والدين وكان ثمة خطة مرسومة في سياق منسق رتيب ويمكن أن نتبين هذا السياق من خلال متابعة دور الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو يبلغ الرسالة ، ودوره البناء في تكوين أمة وحرصه الشديد على اقامة دولة بأبعادها الاساسية ، ومن ثم تكون الامة وتكون الارض وتكون الحكومة والتنظيم الحاكم الذي يكسب صورة الدولة شكلها السوي ، كما نتبينه من خلال متابعة دور أمراء المؤمنين الذين تحملوا المسؤولية بكل الكفاءة في مجال دعم وصمود الدولة في مواجهة التحديات العاصفة من الداخل أو من الخارج كما تحملوا مسؤولية توسيعها حتى أصبحت الدولة الاعظم في مجتمع الدول •

ـ هذا ويستهدف البحث ـ على كل حال ـ دراسة أصولية تتحسس هذه الخطة الناجعة وتتابع سياستها الموفقة ، ويستحق الامر متابعة استراتيجية القدرات المتفوقة التي افلحت واستطاعت أن تفعل مافعلت ، وليس في ذلك سعيا للتركيز على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يكون التركيز على القدرات التي انطلقت من صميم دعوة الاسلام وقيمه العقائدية •

ومن المفيد حقا أن نتابع هذه الاستراتيجية التي اتخذت سمة المرحلية ، عندما تحملت مسئولية اقامة الدولة وليدة ، ثم تحملت مسئولية دعم وجودها والصمود للتحدي من داخلهـا ، ثم تحملت مسئولية التصدي للتحدي من خارجها ويود لو عصف بها ، واقترن ذلك كل بتوسيع الدولة في كل مرحلة من هذه المراحل وارساء التنظيم الحاكم المتكامل في أرجائها •

استراتيجية النشأة :

ـ كانت نشأة الدولة التي أقام صرحها الاسلام تنطلق من نقطة الصفر • ولا تكاد تتوفر أيـة مقومات أصولية في جزيرة العرب يمكن أن ترتكز اليها الرغبة التي ألحت وأفلحت في قيام هذا الصرح ، وربما شهدت مساحات من جزيرة العرب قيام دويلات في شكل ما غير متكامل ، ولايمكن أن يكون ذلـك سابقة مثمرة تنبيء بان الجزيرة العربية بكل أبعادها وعلىمدى اتساعها الرحب قدشهدت كيانا ينتظم الناس ويرعى مصالحهم في وقت سابق للاسلام • ومن ثم كانت مهمة الاسلام صعبة لانه استهدفميلاد دولة لها الشكل المقبول والقانوني في مجتمع الدول آنذاك ، وكان من الضروري أن يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم مهمته انطلاقا من تكوين أمة وجمع شملها الى حيازة أرض وترسيخ الولاء لترابها ، ثم الى تشكيل وتاهيل نظام حاكم قادر على توقيف الدولة على أقدام ثابتة قوية في مجتمع الدول • وكان عليه من بعد ذلك كله أن يؤخذ حقها في الوجود وأن يدفع العدوان الذي قد يعصف بها من هنا أو هناك وأن يشد أزرها بالدين وأن يشد أزر الدين بها •

ـ هذا ولم يملك الرسول صلى الله عليه وسلم بداية سوى ، دعوة ورسالة بكل مافيهما من أصالة ، وخبرة حضارية زودته بها مرحلة عمل نشيط في الوساطة التجارية ، وتحمل المسئولية في مجتمع كافر كله أو معظمه تمزقه القبلية ونعراتها ، ومع ذلك فقد أفلح الرسول صلى الله عليه وسلم فيما سعى اليه في مواجهة الكفر والتمزق ، ونجح في اقامة صرح دولة رغم كل التحـديات التي واجهت مسعاه ، وكان ومن معه من المؤمنين نواة للامة الاسلامية وشركاء بكل الايمان والولاء في بناء صرح دولة الاسلام ، ويؤكد الرسول الكريم انه انما بعث بالهدى لكي يتمم مكارم الاخلاق • وما من شك في أن النفر القليل الذي تجمع بكل الولاء من حوله وتسلح بكل الايمان بالرسالة المثلى ، كان نموذجا رائعا للخلق الكريم وعلى كل المستويات ، ولئن أفلحوا في انتزاع أنفسهم من الجهالة والكفر ، فقد طهروا أرواحهم وشحنوها بكل الولاء للامر العظيم • ومن ثم انبثقت الفكرة النيرة فكانت خير نواة لخيرغرس نما وكبر لكي تكون الدولة •

ـ ويمكن أن نميز في اطار حديثنا عن استراتيجية النشأة وقيام دولة الاسلام بين ثلاث مراحـل محددة ، وقد تكون هذه المراحل متميزة من حيث الجهد والاسلوب ومع ذلك فهي متداخلة بشكل لايسهل معه الفصل الكلي بين كل مرحلة منها • بل ربما سارت في نهاية الامر على محاور متوازية لكي تحقـق أهدافها المثلى المتساندة • وهذه المراحل هي :

١ ـ مرحلة تجهيز وتاهيل واعداد بقصد تكوين الامة •

٢ ـ مرحلة حيازة الارض واقامة النظام الحاكم لكي تكون الدولة •

٣ ـ مرحلة التصدي للعدوان ومواجهة التحديات •

وبات الامر وكانه في اطار خطة مرسومة لكي يكون التساند متبادلا بين الدين والدولة • فالدين يساند الدولة ويدعم وجودها من خلال تكوين أمة ، والدولة تساند الدين من خلال حماسة المؤمنين وقبولهم بكل الولاء لمنطق الجهاد في مواجهة التحديات التي فرضت على الدولة ، وتستحق كل مرحلة أن تجد نصيبا من الاهتمام لكي تكون الدراسة كاشفة لهذه الخطة ومدى ماحققته من نجاح •

مرحلة تكوين الامة :

ـ وكانت هذه المرحلة صعبة ومهمة في مواجهة الكفر والجهالة ، وتحمل الاسلام مشقة التحدي لكي ينتزع الناس من الكفر ، ومن ثم يعكف على تحقيق هدفين متكاملين ، وتمثل الهدف الاول في تربية الفرد وتقويم خلقه وترشيده لكي يكون لبنة صالحة سوية في بنية الامة • وتمثل الهدف الثاني في صياغة المادة اللاحمة التي تشد هذه اللبنات فيكون البناء البشري السليم المترابط للامة • وفي آيات من القرآن الكريم وفي أحاديث شريفة رويت بأكثر من سند صحيح نجد مايؤكد المثل العليا التي تربي الافراد وتقوم أخلاقهم . ونجد مايؤكد أيضا مسالة التلاحم بين المسلمين • وكانها دعوة تنتزع الفرد من كفر وجهالة وسوء خلق بكل الالحاح ، كما تنتشل المسلمين من قبلية متعصبة تظاهر الفرقة والتمزق • ثم اذا بها تسعى الى رص هذه اللبنات رصا سويا لكي تكون البنية البشرية التي يشد بعضها بعضا • ويتعاظم هذا النمط الفكري البناء عندما نستشعر مدى التلاحم الذي تماسك به كيان الامة الاسلامية من بعد أن جمع الاسلام الاوصال وصف اللبنات صفا ، وتلك نتيجة مثلى أرادها الله لعباده وتحمل مسئوليتها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس أروع من القول الكريم (كنتم خير أمة أخرجت للناس) في التعبير الصادق عن هذه النتيجة المثلى ، ويخاطب القرآن الكريم المؤمنين في أكثر من موضع وباكثر من اسلوب لكي يدعم تماسك بنيانهم الصلب فيكون قويا كما اراده الله ويكونوا أمة •

ـ ونستخلص من ذلك أن منهج الاسلام التربوي البناء قد اهتم بالمسلم الفرد بقدر مااهتم بالجماعة لكي يصنع المسلمون من جمعهم السوي المؤمن أمة • ومع ذلك فلا يجب أن يقف التصور عند حد يقتصر على ادراك كلي لكل الابعاد التي صيغت من خلالها التربية الاخلاقية لجمع المؤمنين ، بل الاوجب أن نتغلغل بالفكر في أعماق هذه التربية وأن نتبين التقاليد والمثل العليا التي أرادها الله لعباده ، لكي تكون القاعدة الصلبة في بناء شامخ • وما أعظم دور الرسول صلى الله عليه وسلم وهو

يصنع الامة ، يؤدب الاخلاق ويهذب النفوس وينتزع من الاعماق كل بغيض من شانه أن يتضاد فـلا يتوافق مع عظمة البناء وشموخه وتتصاعد هذه العظمة عندما يكون الاتجاه في اطار عالمية الدعـوة الاسلامية وجهة تكشف عن حرص شديد على تلاحم كل المسلمين ، ومعنى ذلك أن الاسلام أرسى قواعد وأصول من أجل تركيب هيكلي متين للبناء البشري ، وتاتي ذلك بكل السماحة والانفتاح وبصرف النظر كليا عما يكون بين جموع المسلمين من فروقات واختلافات وتباين في العرق واللسان والمستوى الحضاري ومن ثم كان المبدأ الهام الخطير حين تاكد القرار الحاسم القائل بان المسلم اخ المسلم وان لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى •

ـ وكان طبيعيا ومنطقيا أن يكون هذا المبدأ ضمانا ومنطلقا لسلامة التركيب البشري في بنيـة الامة ، وكان مهما أن يفطن الرسول الى القرار الكاشف لكل مايعبر عن معنى وسبيل التـلاحم بين المسلمين وما يترتب عليه من نتائج خطيرة ، وقد بنى هذا المبدأ الاصولي على منطق اسلامي سليم لانه أراد أن يجمع الشمل كله ، ولانه أراد أن يجنب البناء البشري المتماسك على المدى الواسـع من حيث المكان وعلى المدى الطويل من حيث الزمان خطر التردي في تناقض أو تضاد يعرض سلامة الامة لصدع يؤثر على كيانها المتساند وهي تملأ الحيز في اطار الدولة ، ثم يتجلى حرص الاسلام على بنية الامة مرة أخرى من خلال مبدأ كاشف لسماحة الاسلام واساع صدره فلا اكراه في الدين ، ومن ثم كان الحسم في قرار يكفل نمطا ممتازا لتعايش ايجابي بين جموع المسلمين وجموع غير المسلمين ، بمعنى أن القبـول باشتراك المسلمين مع غير المسلمين في البنية البشرية في اطار الدولة الاسلامية كان قبولا واقعيا • وكفل الاسلام لغير المسلمين مكانة ووضعا وحقا في حياة مامونة وحث على تجنب كل ما من شانه أن يعرض البنية البشرية في دولة الاسلام لسبب من أسباب الفرقة أو التمزق ، وهذا دليل صادق بالفعل عـلى خشية الرسول صلى الله عليهوسلم على وحدة الامة • ومن ثم كانت المبادىء التي تحميها وتجنبهـا التردي في صراع بين أغلبية واقلية يمزق شملها •

ـ ومهما يكن من أمر فان الرسول صلى الله عليهوسلم عكف كصانع أمةوصانع دولة أولماعكف على تجهيز وتاهيل واعداد البنية البشرية الصلبة القوية ، ونذكر بمقاييس الوقت الحاضر أن البناء قد اتجه أول الامر وجهة تؤدي الى تكوين البناء البشري البسيط ، وهو نمط يتسم بالتجانس والتوافق في العرق واللسان وفي التراث • ذلك انه كان يمارس البناء في اطار شبه جزيرة العرب ، ومن ثم كـان البناء المؤلف من العرب والمستعمرين بسيطا من خلال التجانس الحقيقي بين هذه الجموع والقبائل ، ومع ذلك فلم تكن المهمة سهلة في ضوء ماكان سائدا من فرقة فرضتها القبلية ومن تمزق فرضه التضاد بين أهل البداوة وأهل الاستقرار ، وافلحت الصيغة الاسلامية في المهمة من خلال تصعيد أسباب التجانس والتوافق لكي تتفوق على أسباب الفرقة والتمزق •

ـ هذا وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حصيفا مرة اخرى عندما تجاوز بالاسلوب البنـــاء وبالرؤيا الصادقة مرحلة البداية وتكوين البناء البشري البسيط في الاطار الضيق المحدود الى مراحـل مرتقبة في الاطار الاوسع • ذلك انه قد توقع بالضرورة وضعا مرتقبا تتسع فيه رقعة الدولة الاسلامية ، وتحمل عندئذ مسئولية التجهيز لتركيب بشري اكثر اتساعا يجمع بين العرب وغير العرب ويضم المسلمين وغير المسلمين ، ومن ثم رسم الخطة وأرسى القواعد والمبادىء لمواجهة مثل هذا الوضع وما ينطوي عليه من تعقيد ، وقد استهدف تعايش الامة بكل احتمالات عدم التوافق وعدم التجانس في اطار دولة الاسلام على اية مساحة يمكن أن تبلغها اتساعا على امتداد الارض • وبني هذا الواقع على منطق سليم بالفعل ، ينبع من خلال ادراك واقعي لحقيقتين هما :

١ ـ أن دعوة الاسلام دعوة عالمية ومطلوب للاسلام أن ينتشر في كل أرجاء الارض ولكي يشمل الناس جميعـــا ، وكان ذلك بالطبع مدعاة لان يدخل في تركيب الامة شعوب وأمم غير متجانسة •

٢ ـ ان عدم قبول بعض الناس بالاسلام مسالة متوقعة والحرية مكفولة ولا اكراه في الدين ، ومعذلك فكان من المحتم أن ينخرط غير المسلمين في الامة وتدخل جموعهم في تركيبها •

ـ هكذا كان التوقع الذي افترض وجودا فضفاضا للامة الاسلامية واعتبر كل مسلم من لبناتها واضاف اليها الرصيد الاخر من غير المسلمين الذين يتعايشون في اطارها ، ولم يكن غريبا ان يعالـــج الرسول صلى الله عليه وسلم الامر من هذا المنطلق وأن يهيء الفرص للتعايش بين المسلمين وغـــير المسلمين ، وهذا معناه انه كفل المرونة لكي يتاتى التحول بالنية البشرية من النمط البسيط الى النمط المركب ومن غير خلل أو من غير تضاد ، وأتاح ذلك التحول لكل قوم أو جماعة دخلت كلها أو معظمهـا في الاسلام وانخرطت في بنية الامة الاسلامية أن تحرص على ذاتها وأن تحافظ على هويتها ، وتحقق ذلك بالفعل من غير أن يكون ثمة تضاد أو تعارض بين الحق في الحرص على الذات والتلاحم والتماسـك الصلب في بنية الامة الاسلامية •

ـ ويعني هذا التحول الذي حدث بالفعل سبيلا لتركيب هيكلي من نمط نعرفه في الوقت الحاضر بالبناء البشري المركب • وهو نموذج من نماذج الترابط بين اقوام وشعوب يتجمع جمعها المركب لكي تؤلف بنية متماسكة وتكون أمة تملأ الحيز في دولة •ويتحتم على هذه الاقوامعندئذ أن تصعد الولاءنحو وضعها في البناء المركب على الولاء نحو ذاتها ، ولايعني ذلك التنازل عن الولاء نحو الذات بل يكـون الولاء ثنائيا ويكون المطلوب التنسيق والتوفيق لكيلا يتاتى التضاد او عدم التوافق بين هين الولائين • وقد أرسى الاسلام قواعد صلبة لهذا التنسيق والتوفيق لكي يكون التماسك ولكي تتصاعد المصالـــح المشتركة التي تشد ولاء المسلمين وغير المسلمين في اطار دولة الاسلام ، ونذكر أن هذا النمـــط من

التركيب البشري قد تمثل بالفعل في وقت لاحق عندما توسعت الدولة الاسلامية ، وكانت عندئذ تضم في بنيتها البشرية اقواما من العرب والفرس وغيرهم من الاقوام التي دخل معظم الناس فيها في دين الله أفواجا ، وافلحت المبادىء والقواعد الاسلامية التي تقررت في تماسك البناء البشري في الدولة الاسلامية الواسعة ، ونجحت تجربة التحول من بنية بشرية بسيطة متجانسة الى بنية بشرية مركبة غير متجانسة (٩) ٠

ـ هذا وكانت مرحلة تجهيز البناء البشري وتكوين الامة مقدمة لكل المراحل الاخرى وقد بدأت مع ظهور دعوة الاسلام في ربوع مكة المكرمة واحضانها ، وكان ذلك من قبيل الابداع الاسلامي منذ أن قبل بالرسالة وآمن بالله نفر قليل من المؤمنين ، واتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم من ذاته ومن صحبه نواة للامة ، وكانت النواة تستقطب بالفكرة المؤمنة الناس لكي تدخلهم بناء الامة ، وكانت التربية ألاسلامية والايمان الحقيقي سبيلا تتاتى به الصياغة المثلى لكي يزيد رصيد المؤمنين عددا ولكي يتصاعد البناء البشري صلبا قويا ٠ وأصبح الاعداد والتجهيز والصياغة التي سعت واستهدفت تكوين امة مؤمنة بالله سابقة بالضرورة لحيازة اجرض التي تتخذ منها هذه الامة قاعدة ونواة لدولة الاســلام ٠

ـ ولئن كان من المحتم على هذه الامة أن تناضل من أجل حيازة الارض لكي تتخذ منها وطنا وتقيم دولة ، فان في ذلك كله التعبير الكافي والكاشف عن مدى الترابط الوثيق الواثق بين الدين والدولة ، ويظهر الترابط فيما بينهما بالفعل فاذا بها صلة عضوية وموضوعية ولم تكن أبدا صلة عفوية ، ولم يقدر لمرحلة التجهيز وتكوين الامة أن تنتهي أبدا عندما تبدأ المرحلة الايجابية التالية التي استهدفت حيازة الارض واقامة الدولة ، بل لقد استمر الجهد البناء وكان مطلوبا له أن يستمر فعالا ونشطا لكي يعد الاسلام المسلمين نفسيا واخلاقيا وحضاريا للانخراط كلبنة سوية صالحة في بنية الامة الاسلامية ، وكان من الطبيعي أن تستمر لان حيازة أرض واقامة دولة لايمكن أن ينهي التجهيز الذي يهيء للامة ماديا ومعنويا أن تزداد عددا وأن تعتز بهذه الزيادة وأن تزداد صلابة في مواجهة التحدي الكافر ٠

مرحلة حيازة الارض ونشأة الدولة :

ـ ربما كان الرسول صلى الله عليه وسلم متشوقا لان تبدأ مرحلة قيام دولة الاسلام على أرض مكة المكرمة ، وما من شك في أن مكانة مكة المرموقة في جزيرة العرب كانت كفيلة بان تضفي أهمية عظمى على دولة الاسلام لو أن كانت القاعدة والنواة ، ومع ذلك فان الاسلام لم يستطع في مواجهة التحدي الكافر وعناده وتعنته أن يفعل ، ونذكر في هذه المناسبة اننا لانكاد نستشعر رغبة او تطلع اسلامي لقيام دولة في مكة قبل الهجرة من خلال قول صريح او من خلال تلميح ضمني ، ذلك انه لو استشعرنا مثل هذه

الريبة بالفعل لكانت للهجرة ولكان للخروج من مكة الى المدينة شأن آخر من حيث المفهوم • ذلك أن الهجرة كانت تمثل عندئذ وضعا أقرب مايكون من حيث الشكل والمفهوم لوجود حكومة في المنفى ، ولايمكن أن يكون وجود الرسول ومن معه من المهاجرين في المدينة من قبيل ذلك بأي حال من الاحوال ، بل انهم عاشوا فيها وتحملوا المسؤلية دون أن يتخذ جمعهم المؤمن وضع اللاجئين (٧) •

ـ هذا وتكشف كل الحقائق والتصرفات والاحداث أن جوهر الفكرة النيرة التي حفزت الانطلاقة البناءة في المرحلة الحاسمة والتي صيغت من حولها دولة الاسلام قد تأتت في المدينة ، ومعنى ذلك أن الفكرة تبلورت وتجسدت واتخذت الابعاد المكونة للشكل الحقيقي الملموس من بعد حيازة الارض في المدينة المنورة ، وعندئذ فقط افلح الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من مهاجرين وانصار وهم باكورة الامة في غرس النبت الوليد لكي تكون للاسلام دولة ، وتوفرت لهذا الجمع المؤمن بالله والمؤمن بالفكرة النيرة والمؤمن بالصلة العضوية بين الدين والدولة فرصة اقامة الدولة فعلا ، وتحققت من خلاله حيازة ارض وفرض السيطرة عليها ومن ثم اتخذت القيادة الرشيدةمن المدينةوما حولها قاعدة للدولة وكانت على نحو مانعرفه في الوقت الحاضر باسم النواة • وكانت هذه البداية منطلقا لكل التحركات الايجابية من أجل مواجهة التحديات الكافرة التي اتخذت من العدوان وسيلة وغاية ، ومن أجل توسيع القاعدة لزيادة حجم الامة الاسلامية وزيادة مساحة الدولة الاسلامية •

ـ وكانت الهجرة في حد ذاتها استجابة لأمر الله ، ومع ذلك فانها في نفس الوقت الحدث الاعظم في تاريخ الاسلام من وجهة النظر السياسية ، وكانت بالفعل نقطة التحول الحقيقي من حيث (١) بناء صرح الدولة وغرس جذور النبتة التي كبرت (٢) اظهار الترابط العضوي بين الدين والدولة (٣) التخطيط لمواجهة المواقف الصعبة والتحديات الكافرة ، بل أنها كفلت تحريك الدولة والدين الى نقط تحول خطيرة أخرى توالت من خلال سير الاحداث • ويجب أن نؤكد أن هذه الهجرة من نمط خاص ومتميز ولا يجوز مقارنتها بهجرة اسلامية سابقة كانت الى الحبشة ، وتمثل الهجرة الى الحبشة نمطا من أنماط التحرك السلبي لانها استهدفت فرار بعض المسلمين من مواجهة الخطر المفروض عليهم • أما الهجرة الى المدينة المنورة ـ يثرب ـ فتمثل نمطا من أنماط التحرك الايجابي وأدت الى مداول وطابع سياسي ذلك أنها وان استهدفت فرارا في الظاهر فانها قد حققت بالفعل نتائج ايجابية خطيرة ، ويكفي أنها أدت الى حيازة أرض واتاحت تنظيما حاكما لكي تكون دولة للاسلام ، ثم انها حولت المسلمين من واقع اتسم بقسط كبير من الاستكانة للتحدي الكافر بعض الوقت الى واقع اتسم بكل الايجابية في التصدي لهذا التحدي وهزيمته في كل وقت •

ـ وتنبيء الهجرة والتحرك الى المدينة لكي تكون نواة الدولة بادراك ذكي لبعد استراتيجي هام وخطير من وجهة النظر السياسية والاقتصادية ، وكانت له بالضرورة خطورة في حساب العلاقات وفي

حساب التحركات التي لعبت دورا في دعم الاوضاع في الدولة الوليدة • ذلك أن المدينة المنورة تقع في موقع جغرافي حاكم لكل محاور الحركة على الدروب والطرق بين مكة والشام • وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد انتخب موقع المدينة لكي يتخذ من هذا الموقع مطية لكل التحولات الايجابية • وما من شك في أن ايمان معظم أهل المدينة كان يحقق اضافة الى رصيد الامة الاسلامية ، كما كان موقعها يكفل قطع طرق التجارة ويضيق الخناق على التحدي الكافر في مكة • وليس أفضل من موقع المدينة بشريا واقتصاديا في نظر استراتيجية الوقت الحاضر للتصدي للعدوان الذي تقوده مكة ، هذا وكانت المدينة قاعدة اقتصادية جيدة من حيث موارد الارض أو من حيث صلاتها بطريق الشام واستطاعت أن تلبي احتياجات الامة الاسلامية التي عاشت فيها ، ومن ثم أتاحت بالفعل للقوة الاسلامية أن تتصدى للعدوان وأن تتحرك بكل الايجابية وأن تضيق الخناق على الكفر في مكة •

ـ هذا وقد برهن الرسول بكل الفطنة على قدرته المتفوقة في قيادة هذه الدولة من بعد قيامها ، وأولى الرسول صلى الله عليه وسلم النبتة الوليدة كل الرعاية لكي يدعم وضع دولة الاسلام ويفرض النظام الحاكم الذي يكسبها شكلها القانوني في مجتمع الدول ، بمعنى انه لجأ كقائد ورئيس دولة الى التنظيم الذي يعطي أوضاع الامة من مهاجرين وانصار أسبابا وعوامل تؤكد الارتباط بالارض لكي تستقطب الولاء وتساند التحول السياسى الذي ترتب بالفعل على قيام دولة الاسلام ، ولئن استهدف التنظيم الاوضاع الداخلية وعلاقات المسلمين مع غير المسلمين وحق السيادة على الارض ، فقد استهدف بالضرورة ايضا الاوضاع الخارجية بما في ذلك دفع العدوان ودرء الخطر ومواجهة التحديات المفروضة عليها وتنظيم علاقاتها مع الخارج •

ـ هكذا كان من المحتم أن تكون لامة الاسلام الصغيرة بالكم والعدد والكبيرة بالامال والتطلعات أرضا ، وكان من الطبيعي أن تتخذ من هذه الارض وطنا وقاعدة للدولة وتصبح المدينة منطقة النواة في اطار التوسع المرتقب ، وكان من المفيد أن يتصاعد الترابط العضوي بين الدين والدولة ، تعتز الدولة بالدين ويدعمها ويعتز الدين بالدولة وتدعمه ، ومن ثم تتعلق الامة المؤمنة بهما معا وتتسلح بكل أسباب المنعة دفاعا عنهما ، ويكون ذلك كله على اعتبار أن الدولة نبتة غرست بكل الايمان لكي تكون نواة ولكي تكون المنطلق لصرح شامخ يسعى بكل السبل الايجابية لنشر الاسلام في جزيرة العرب ولجمع شمل أكبر لامة يتعاظم ويتساند جمعها في اطار دولة الاسلام ، وما من شك في أن فطنة الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعمت اعتزاز المسلمين بأرض الاسلام ودولته في المدينة أولا وقبل كل شيء ، وحققت هذه الفطنة النمط الامثل للاعتزاز من خلال مشاركة فعلية في حيازة الارض بين المسلمين من انصار ومهاجرين ، وقد قبل الانصار تلك المشاركة بكل الرضا والاقتناع على أمل أن يستشعر المهاجرون من خلال حيازة الارض والارتباط بها عزة واعتزازا ، وكان المهاجرون بذلك مواطنين ولم تجعل الهجرة منهم جمعا من لاجئين يلوذون بالمدينة •

مرحلة التصدي والمواجهة :

ـ وتلك مرحلة تضع الاسلام في التجربة لكي يواجه العدوان ويتصدى له من خلال وضعه في دولته الوليدة ، وكانت الدولة تستشعر الخطر وتحسه ومن ثم تنطلق الامة بكل الثقة بالله وبكل الاعتزاز بالارض الى المواجهة مع التحدي الكافر ، وما من شك في أن مصدر هذا التحدي قد فرض على دولة الاسلام أن توجه الجهاد في سبيل الله نحو مكة وأهل مكة • وكان الكفر يتخذ منها بيتا ومنزلا وكان الاسلام حريصا على كبح جماح هذا الكفر وحظر طغيانه • ومن ثم كانت الحاجة ملحة لان يواجه الاسلام الكفر مواجهة ايجابية لكي يقهره ويوقف طغيانه الذي يود لو اغرق دولة الاسلام في بحر عناده وبطشه •

ـ هذا وكانت دولة الاسلام تسعى بكل الجهد لكي تكون مكة قطاعا عزيزا ينضم الى أرضها ، وتعلق أمل الاسلام بأن يملأ الحيز فيها جميع المسلمين الذي يصنع منهم أمة أعز جانبا • وكانت الدولة تستشعر بذلك انتصارا على الكفر وتأكيدا للاسلام وتوسيعا للدولة ، وانطلقت هذه الرغبة لكي تحفز الامة على الجهاد وعبرت عن أعز الامنيات ، وكان الامل أن يعتز الاسلام وتقوى دولته من خلال ضم مكة اليها وأن تعتز مكة بالاسلام وتتطهر من الكفر ، وهذا أمل نابع من منطق سليم أملاه ادراك واعي بمكانة مكة ـ أم القرى ـ ووضعها المرموق في جزيرة العرب أولا ومنطق الاعتزاز بالتراب والانتماء ثانيا ومنطق رباني جعل من البيت فيها قبلة للمسلمين ثالثا ، وهذا معناه أن الاسلام اتخذ من كل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية منطلقا الى قتال أهل مكة وضمها الى دولة الاسلام ، ويمكن أن نعبر عن ذلك بأن الدولة قد استشعرت أنها من صميم مجالها الحيوي وتستكمل من خلال ضمها مقومات وجودها الاقوى • وكان توجيه التحرك الايجابي النشط للاسلام وقد اتخذ شكل الجهاد كان منطقيا بقدر ما كان ربانيا • وليس صحيحا بأي حال من الاحوال أن نتصور الحرص على فتح مكة من قبيل تشوق المهاجرين للعودة الى ديارهم فيها والحنين اليها ، بل انه سبيل قادت اليه وبكل الالحاح مواجهة التحدي الكافر العنيد وضرورة التفوق عليه انتصارا للدين وفرضا لمشيئة الله ودعما لقاعدة وبنيان الدولة الوليدة ، وتنهض عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد فتح مكة وادخالها في اطار دولة الاسلام وكبح جماح الكفر فيها الى المدينة دليلا صادقا على مدى التعلق بتراب المدينة وتراث الاسلام فيها ، وهذا معناه أن المدينة المنورة أصبحت من بعد نصر الله والفتح في نظر النظام الحاكم في دولة الاسلام مركز الثقل الاهم من وجهة النظر السياسية والادارية على الاقل ، وكان تصاعد التحدي الكافر من قلب مكة هو الذي وجه مسيرة التحرك النشط واستقطب الجهاد في سبيل الله من أجل قهر الكفر قبل أي شيء آخر ، ومع ذلك فان مكة في تقدير دولة الاسلام كانت أهم قطاع من الارض يحقق مجالا حيويا لها ، وكان فتحها حجر الزاوية في تخطي عناد الكفر وخطره الجامح • وكان في نفس الوقت يقود الاسلام ودولته المظفرة الى نقطة تحول جديدة هامة ، ذلك أن التحرك النشط للجهاد في سبيل الله أخذ سبيله الى أنحاء من جزيرة العرب على أمل لم أوصال القبائل المبعثرة فيها ، واسقاط الكفر عنها وادخالها في بنية الامة الاسلامية •

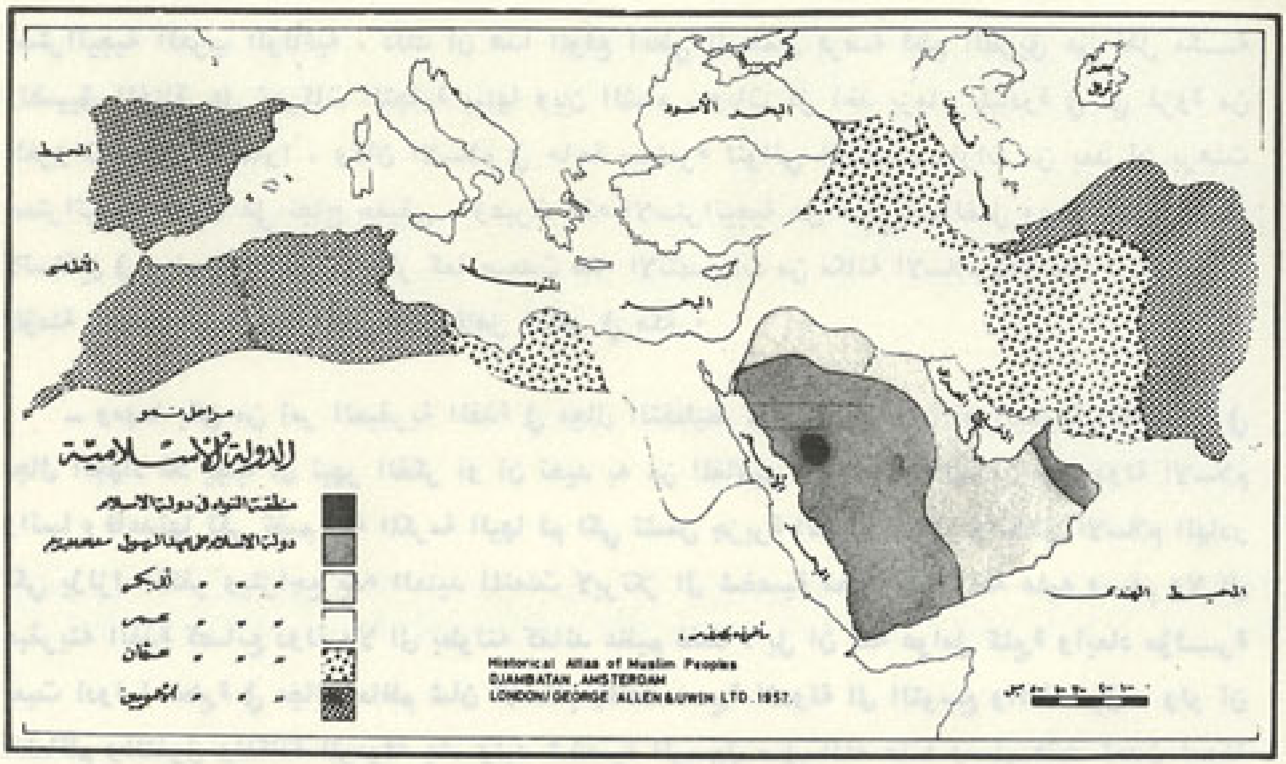

ـ هكذا عكف الرسول صلى الله عليه وسلم بكل الفطنة على تهيئة الظروف المناسبة لنشر الاسلام كما عمل بكل السبل في سبيل ارساء قواعد تثبت جذور دولة الاسلام ، وكان توسيع قاعدة الدولة دعما لوجودها وصمودها بقدر ماهو دعم لانتشار الاسلام ونمو حجم الامة الاسلامية ، وتنبيء كل التحركات الايجابية العسكرية والسياسية والدبلوماسية بحقيقة التطلعات وبحجم الطموح الذي حمل أمة الاسلام مسئولية توسيع الدولة الى أقصى حد ممكن ، ويبدو أن الاسلام لم يكن قانعا بدولة صغيرة في اطار المدينة المنورة وما حولها ، ذلك أنها تكون عندئذ من قبيل الرمز لما يعرف باسم دولة المدينة City State

بل ان الاسلام لجأ بكل الحنكة في مجال السياسة والدبلوماسية وبكل الاقناع في مجال العلاقات الاجتماعية على نشر العقيدة وزيادة حجم الامة ، كما تحلى بكل الشجاعة والاقدام في مواجهة الخطر وكبح جماح التحدي الكافر . وكان حمل السلاح جهادا في سبيل الله ودفعا للعدوان عن الارض قرارا حاسما وبناء ، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم تبين من خلال التجربة أن الهجوم خير مطية للدفاع في مجال الحرب .

ـ ومن ثم لم تكن الغزوات التي خاض المؤمنون غمارها من قبيل العدوان طلبا للعدوان ، بل كانت هذه الغزوات في حالات الدفاع أو الهجوم من قبيل الحرب الوقائية ، وكان القرآن الكريم يحفز المسلمين للجهاد وحمل السلاح ، كما كان موقع المدينة المنورة ـ كما قلنا ـ يحفز المجاهدين على تبني

استراتيجية الحرب الوقائية ، ذلك أن هذا الموقع أعطى المسلمين فرصة قطع الطريق على أهل مكة وتضييق الخناق على تحركات التجارة بينها وبين الشام ، وبات كل أخذ بزمام المبادرة في أي غزوة من الغزوات يحقق انتصارا ، وكان الاسلام في حاجة مستمرة لتوالي الانتصارات من بعد أن برهنت استراتيجية الجهاد على نجاح حقيقي ، وعبرت هذه الاستراتيجية عن عبقرية بالفعل وعن ايجابية نشطة لاتستكين في مواجهة التحدي الكافر كما صعدت هذه الانتصارات من مكانة الاسلام والايمان بالله والامة المؤمنة ، وصدعت الهيبة التي كانت لاهل الكفر في مكة •

ـ ومهما يكن من أمر العبقرية الفذة في مجال التخطيط لمواجهة العدوان أو البطولة الكاسحة في مجال الجهاد فلا يجب أن تبهر الفكر او أن تحيد به عن المفاهيم السليمة ، ذلك أن قيام دولة الاسلام واتساع قاعدتها لكي تضم مكة المكرمة اليها ثم لكي تشمل جزيرة العرب كلها ، وانطلاق الاسلام الهادر لكي يزلزل الكفر ويتراجع مده العنيد المتعنت لايرتكز الى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ولا الى عبقريته الفذة كصانع دولة ولا الى بطولته كقائد عظيم فقط ، بل ان ثمة عوامل كثيرة وأبعاد مؤثرة لعبت أدوارا خطيرة في مجال تعاظم شان الاسلام وقادت مسيرة الدولة الى التوسع والتفوق ، ولو أن التعاظم والتفوق والمكانة المرموقة جاء وليد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فقط لحدث لدولة الاسلام ماحدث من قبل لدول وامبراطوريات تجمعت أوصالها من حول بطل ، ويتحمل هذا البطل مسئولية اقامة الدولة مثلما يتحمل مسئولية تصعيد مكانتها وتاكيد تفوقها حتى اذا ماقضى نحبه تصدع البناء وتمزق الصرح الذي كان شامخا بعض الوقت ، والمفهوم أن دولة الاسلام عاشت من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وحققت مزيدا التوسع ومزيدا من التفوق ، وواصلت الدولة مسيرة المواجهة الايجابية وسياسية التحرك النشط لكبح جماح كل التحديات من الداخل ومن الخارج على السواء •

ـ وهكذا افلح الاسلام في تكوين أمة بقدر ماأفلح في اقامة دولة ، ثم افلحت القيادة الرشيدة التي خلفت الرسول صلى الله عليه وسلم في ترسيخ الدولة ، بل أضافت هذه القيادة رصيدا يؤكد تعاظم الدولة من خلال التمسك بالعقيدة ومن خلال الاستراتيجية المرنة والدبلوماسية الماهرة ، وتصاعدت الصلة العضوية بين الدين والدولة واكتسبت الدولة مكانة في مجتمع الدول آنذاك ، ومن ثم احتاجت الدولة الى استيعاب وضعها ومكانتها الدولية لكي يكون النظام الحاكم للعلاقات الدولية والنابع من منطق الايمان بالاسلام ومثله العليا • كما احتاجت الدولة الى استيعاب وضعها ومكانتها لكي تتحمل مسئولية انتشار الاسلام •

استراتيجية دعم الدولة :

ـ من بعد كل هذا الجهد العبقري البناء مات الرسول صلى الله عليه وسلم كما يموت سائر البشر • وكان موته خسارة تتحملها الدولة أكثر مما يتحملها الدين • ذلك أنه أبلغ الرسالة ولكن

الدولة كانت في حاجة ملحة لقيادته لمواجهة كل التحديات التي كانت تواجهها ، ولكنه بشر يصدق عليه مايصدق على سائر البشر وكان صلى الله عليه وسلم لايكف عن تذكير الناس بانه بشر مثلهم . كما أكد القرآن الكريم ذلك المعنى ، ومع ذلك فان الخسارةالفادحة وقعت وقع الصاعقة، وكان رد الفعل هزات عنيفة وخطيرة على الدولة وعلى الدين بحكم مابينهما من صلة عضوية .

ـ وكانت الهزة في اطار الصحابة نفسية أثارت جزعا شديدا وانتابت هذه الهزة بعض الرجال ممن عايشوا الرسول واستهوتهم شخصيته الفذة وقدراته الخلاقة ، وربما زلزت الهزة هذا الفريق من الرجال من أعماقهم ، ونضرب لذلك مثلا بعمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي لم يتقبل مسالة وفاة الرسول والتحاقه بالرفيق الاعلى قبولا حسنا وصابرا ، وأوشك هذا الفريق أن يرفض فكرة الموت وكان محمد صلى الله عليه وسلم ليس كسائر البشر ، وكانت هذه الهزة نموذجا لخطر جسيم نابع من أخلص المؤمنين وشركاء الرسول في الجهاد البناء لجمع شمل وتكوين أمة ولخلق واقامة دولة ، وكـــان من الضروري احتواء هذا الخطر بسرعة وبمهارة حتى لايكون أمر الدولة وبالتالي أمر الدين مرهونـــا بشخصية محمد صلى الله عليه وسلم .

ـ هذا وقد بادر أبو بكر رضي الله عنه الى احتواء هذا الخطر بالفعل ، واستطاع بكل اللباقة والكياسة أن يكبح جماح الهزة النفسية وان يوقف خطر الزلزلة وما يمكن أن يترتب عليها ، وأكد أبو بكر أن قيام الدولة ووجودها السوي لايجب أن يرتكز الى شخصية صانع هذه الدولة ، وتنـــف الموقف بكل الحنكة والحسم ووضع سياسة ترتكز الى :

١ ـ الايمان بان محمد صلى الله عليه وسلم بشر يصدق عليه مايصدق على كل البشر .

٢ ـ الاصرار على أن تظل أعلام الدولة مرفوعة وان تبقى الامة متماسكة قوية .

٣ ـ الحرص على الدعوة والعقيدة لكي تكون ظهيرا وسندا للدولة وللامة ولكي تكفل الامن لهما.

ـ ولئن تجلت عظمة أبو بكر من خلال هذه الحنكة الدينية واتخاذها مطية لاحتواء الخطر وكبح جماحه فقد تجلت عظمته مرة أخرى من خلال هزة أخرى ، وكانت هذه الهزة الاخرى في اطار أوسع يضم قطاعا من الامة الاسلامية ، وما من شك في أنها كانت اعظم وأكثر خطرا لانهاطلت بخطرها لدى البحث عن الشخصية التي تتولى القيادة من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأوشكت هذه الهزة ان تزلزل قريش أهل مكة ، وربما بنيت هذه الهزة على أساس حداثة عهدهم بالاسلام وبالانخراط في بنية الامة . وربما بنيت أيضا على قسط من استعلاء معروف عنهم أركبهم مركب العناد المتصلب وقتا طويـــلا في مواجهة الدولة من قبل . وما من شك في ان هذه الزلزلة كانت كفيلة بعصيانهم أو اعلان عدم الايمان أو الردة ، ومعنى ذلك أن يصاب بناء الامة بصدع خطير ، ومن ثم يتاثر كيان الدولة وتتضرر العقيدة

لو انها استشعرت ولم تجد من يكبح جماح خطر المدمر ، والمفهوم ان مكانة قريش في أوساط العرب كانت كبيرة دائما وان الموقف الذي تتخذه يكون له في الغالب رد فعل ايجابي .

ـ وتنهض شخصية أبو بكر رضي الله عنه مرة اخرى لكي تواجه هذه الهزة وتحتوي الخطر المتوقع وقد تولى عندئذ القيادة واصبح اميرا للمؤمنين وتحمل المسئولية الكاملة حارسا للدين وأمينا على الدولة ، ويبدو أن الحنكة السياسية قد اعادت قريش الى صوابها وكبحت جماح الاستعلاء في نفوسها ، واقتنعت قريش بان حماية الدولة والمحافظة على بناء الامة سليما يحقق لهم مايصبو اليه استعلائهم ، ولئن اعتبرت قريش نفسها في موقع السيادة بين سائر العرب فان حكم ابو بكر وتحمله مسئولية القيادة وهو من سادة قريش يحفظ لهم سيادتهم ، وكان حل عقدة الاستعلاء في نفوسهم قد تاتي من خلال وضع استشعروا فيه انهم الصفوة وان ابو بكر وهو منهم قمة هذه الصفوة ، ومن ثم كان التحرك السياسي البارع كفيلا باحتواء الازمة وتوقيف خطر هذه الهزة .

ـ ثم كانت الهزة الثالثة التي انطلقت بنمط من انماط التحدي الخطر الذي اوشك ان يكون مدمرا وهداما . وكانت زلزلات مثيرة تهز كيان الدولة وتهدد بناء الامة وتعتدي على عقيدة الاسلام ومثله العليا ، وتاتت الردة على المدى الواسع وكاد شانها أن يكون شان الوباء الخطير ، وقد بنيت على قسط من الانتهازية البغيضة عندما حاول بعض اولئك المفسدين الذين ادعوا النبوة أن ينفثوا سموم ادعائهم في قطاعات من الجزيرة العربية ، ولعلهم ارادوا أن يتخذوا من الادعاء مطية لاستقطاب بعض القبائل العربية وعلى امل التسلط واستخلاص حصة من السلطة ، وانتهز هذا الفريق المجرم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يزلزلوا العقيدة الاسلامية ، التي لم تكن قد رسخت بعد في نفوس بعض القبائل .

ـ هكذا كانت الردة خطرا عظيما يقوده ادعياء نبوات كاذبة ، وقد تصاعد الخطر بالفعل واحدث صدوعا وتمزقا أوشك أن يكون مدمرا للدولة وللدين معا ، ويعتقدبعض الباحثين أن هذا الخطر اصبح واحدا من أخطر التحديات التي تواجه الاسلام والمسلمين وتهدد دولته الفتية ، ولم تكن ثمة فرص لاحتواء هذا الخطر من بعد أن سار في ركب التحدي السافر . واستشعرت قيادة الدولة الاسلامية أن الحنكة السياسية لاتكاد تجدي وأن الحنكة الدينية لاتكاد تنجي ، وكان على هذه القيادة أن تمارس التحرك الايجابي من بعد أن تردت الاوضاع الى ابعد الحدود ، وأخذت الدولة على عاتقها مسئولية مواجهة المرتدين ودرء الخطر الذي يوشك أن يقوضها ، وعندئذ لم يكن على امير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه الا ان يعلن حالة الجهاد من أجل استراتيجية التصدي للعدوان على الدين والدولة .

ـ هكذا عادت الدولة الى الاستراتيجية المرنة والتحرك النشط الذي برهن على أن الهجوم خير

معطية للدفاع ، وقد عاشت دولة الاسلام وهي وليدة في أحضان المدينة هذه الاستراتيجية واكتسب المسلمون المؤمنون خبرة عظيمة بها ، وكانت الغيرة على الدين والحرص على كيان الدولة والمحافظة على كيان الامة حافزا الى الجهاد في سبيل الله •

ـ وقد وضعت الخطط التي تقرر من خلالها تحريك سريع وحاسم لمواجهة أهل الردة وضربهم في عقر دارهم حيثما كانت ، وتصاعدت الى أسماع السماء أصوات التهليل والتكبير للجمع الهادر الذي تحمل شرف الجهاد في سبيل الله • واضافت الحماسة الدينية المنقطعة النظير الى صفوف المجاهدين رصيدا من قوة عظمى لانهم يقاتلون في سبيل الله ، وفي سبيل الامة وفي سبيل الارض ، واستشعر كل مجاهد مسئوليته العظمى فكانت الحملات قوية على أهل الردة تقوض الباطل الذي أشهروه ، وعقد للمجاهدين النصر وحققت الدولة للاسلام وللمسلمين تفوقا كاسحا كبح جماح الردة والمرتدين •

ـ ولئن كانت المهمة في هذه المرحلة صعبة والمسلمون يواجهون الخطر الذي أوشك على أن يعصف بالدين والدولة معا ، فان التصدي بكل الايمان وبالضربة الحاسمة في الاتجاه المناسب كان ضروريا ، ذلك أن نجاح هذه الضربة الحاسمة قد ثبت بالقطع الدعامات التي ترتكز دول الاسلام عليها في كل انحاء جزيرة العرب ، وهذا معناه أن دولة الاسلام خرجت من المحنة ـ اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير ـ قوية شامخة تستشعر العزة بالدين والمنعة بالامة المؤمنة ، بل لقد اضافت توسعا وصعدت من الروابط التي جمعت شمل العرب وصاغت منهم لبنات جديدة الى البناء البشري الصلب فيها ، وافلحت قيادة الدولة في تأكيد وضعها كدولة في مجتمع الدول •

ـ ولايعني ذلك كله تصعيدا أو تعظيما لشخصية أمير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه ولكن المسالة في تقديري تعني تسجيل حنكة الحاكم المؤمن في معالجة المواقف الصعبة وابراز دوره كرجل دولة مسئول ، وكانت قدرة القيادة فذة في مجال تصعيد البعد الديني لاستراتيجية نشطة تكفل المواجهة الايجابية للتحديات ، كما كانت استجابة جموع المؤمنين بكل الحماس للجهاد في سبيل الله واستبسالهم وتضحيتهم بالنفس والمال دفاعا عن الدين وحماية للدولة تعبيرا على حرص الامة على أهدافها المثلى •

ـ ومهما يكن من أمر فان خروج دولة الاسلام المظفر من هذه المواجهات قد دعمها ، وكان الدعم دعما بالناس وقد زاد عدد المسلمين وكبرت الامة الاسلامية كما كان الدعم دعما بالارض التي أضيفت بمواردها المتاحة الى الدولة • ويعني ذلك أن سياسة أمير المؤمنين قد أكسبت دولة الاسلام عمقا بشريا من خلال زيادة حجم الامة وعمقا ماديا اقتصاديا من خلال اتساع مساحة الارض في حوزتها ، وبنى على ذلك زيادة في مكانة الدولة الاسلامية في مجتمع دول المنطقة آنذاك من ناحية وتعميق الروابط

العضوية بين الدين والدولة من ناحيةأخرى •ودعا ذلك كله الىنتيجة استوجبت معالجة وتعديلأوضاع الدولة في اطار الظروف الجديدة التي ترتبت على وجودها في مجتمع الدول ، ومن ثم كانت نقطة تحول جديدة غاية في الاهمية والخطورة من حيث سياسة المستقبل على الصعيد العالمي ، ذلك انها ادت الى انتقال دولة الاسلام انتقالا حقيقيا الى الصعيد الخارجي آخذة بسياسة وباسلوب حقق التوسع في مساحة الدولة والنجاح في نشر الدعوة والتفوق في المجتمع الدولي وحازت من خلال ذلك كله على مكانة الدولة الاعظم في العالم •

استراتيجية التوسع :

ـ برهنت كل المراحل التي مرت بها دولة الاسلام منذ نشاتها على جدوى الجهاد ، وكان الجهاد سبيلا للتصدي للخطر ، ولجأ المجاهدون الى شن الهجوم المباغت من أجل كبح جماح التحدي الكافر المدمر وردع العدوان ، ويكاد يكون هذا النمط من انماط الحرب الوقائية التي تعرفها وتمارسها بعض الدول في الوقت الحاضر ، وتتخذ هذه الحرب من الهجوم مطية للدفاع ، ولا يمكن أن تعبر هذه الحرب عن روح عدوانية ، بل انها تعبر عن يقظة تستشعر الخطر فتتصدى له قبل أن يقع عليها ويدهمها • وكان الحماس الديني يحفز المجاهدين على الابداع في فن الحرب والقتال ، ولم يكن واحد من المجاهدين يتخوف أو يهاب الموت بل كان الاستشهاد غاية مثلى •

ـ هذا وكانت كل الدلائل والمؤشرات تنبيء منذ فتح مكة بخطر حقيقي وتحديات جامعة تبديها الدول في المنطقة ، والمعروف أن مجتمع الدول ممثلا آنذاك في دولتي فارس وبيزنطة لم يستقبل دعوة الاسلام كما لم يستقبل قيام دولة الاسلام الوليدة استقبالا حسنا يبشر بعلاقات طيبة ، وكان الرفض للدعوة يعني رفضا للدولة ووجودها بصفة عامة ، وكان الرفض المعلن مطية للخطر المتوقع وتعبيرا عن العدوان المرتقب ، واستشعرت دولة الاسلام ذلك الخطر الذي بات يهدد أمن وسلامة الاسلام والمسلمين ومن ثم لم يكن غريبا أن استوجب الامر يقظة تامة بقصد التحرك في الوقت المناسب للتصدي لهذا الخطر ودفعه •

ـ وربما كانت غزوة تبوك استطلاعا مبكرا وتحركا ايجابيا نشطا ينم عن يقظة دولة الاسلام • وقد قاد الرسول صلى الله عليه وسلم المجاهدون تأمينا لحدود الدولة الشمالية التي تقع على التخوم الفاصلة بينها وبين الدول الاخرى في المنطقة • وكانت قيادة الاسلام عالمة بامرين هما :

١ ـ أهمية موقع تبوك في الموضع الحاكم لكل محاور الطرق بين جزيرة العرب والشام ومايعنيه ذلك من وجهة النظر الاقتصادية •

٢ ـ اهمية السيطرة عليها لكي تكفل اشرافا على موقع ممتاز ونقطة انذار متقدمة تطل من خلالها الدولة على التخوم وترقب احتمال التحركات فيها •

ـ ويمكن ان نستشعر من خلال كل المشقة التي تحملتها الحملة الاسلامية وصولا الى تبوك حنكة استراتيجية • وفضت هذه الحنكة بالتحرك النشط في الوقت المناسب وكانت معبرة عن اصرار دولة الاسلام على الاخذ بزمام المبادرة على اعتبار أن الهجوم يعطي الفرصة الافضل للدفاع ، ونذكر في تصور حاسم ان قيادة الدولة قد عقدت العزم دائما على شن الحرب الوقائية حالما استشعرت الخطر ، وهذا معناه ان الاحساس بالخطر يجعل الحرب عملا مشروعا وان المبادرة بها تضيف الى كفة المسلمين رصيدا من خلال عنصر المفاجأة ، وأصبح ذلك من بين أهم المبادىء المعمول بها في دولة الاسلام سواء تأتي الخطر واحتمال العدوان عليها من الداخل أو من الخارج •

ـ وقد أطل التحدي السافر بكل العدوانية على دولة الاسلام من الخارج بالفعل ، والمعارك الحاسمة تاخذ مجراها ضد أهل الردة ، وأعلن التحدي رفضا للدين وللدولة في وقت واحد وبات يهدد المصير المشترك لهما ، وكان طبيعيا بل ومحتما أن تاخذ دولة الاسلام بزمام المبادرة ومن غير تردد ، ولم تكن ثمة فرصة لاختيار بديل غير الحرب والجهاد في سبيل الله ، وسعت دولة الاسلام الى وضع حد لخطر الردة الذي هدد كيانها من الداخل • وتوجهت بكل العزم الى موقف صلب لمواجهة الخطر المتربص بالاسلام من الخارج ، واستهدفت بالضرورة كبح جماح العدوان المرتقب والرفض المعلن من كل من فارس وبيزنطة ، وكان قرار الجهاد وممارسة الحرب الوقائية عملا بنفس الخط الاستراتيجي الناجح الذي انتهجته الدولة من قبل (٨) •

ـ وكان قرار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشن الحرب حاسما • ذلك أنه يمثل نقطة تحول هامة لامن حيث التصدي للخطر فحسب بل من حيث توسيع قاعدة الدولة واتاحة الفرصة لانتشار الاسلام وتعاظم مشيئة دولة الاسلام في المجتمع الدولي ، وكانت حملة جهاد تغزو فارس في عقر دارها وتباغت التحدي الذي أعلنه كسرى وعدوانه المرتقب ، وكانت حملة جهاد أخرى تغزو الشام وتنازل بيزنطة في مناطق نفوذها ، وكان التحرك السريع الذي حدد ساعات المعارك ونقلها لكي تكون على ارض العدوان المتربص بالاسلام والمسلمين حاسما ومؤهلا بكل الشجاعة والحماسة والفداء لانه الجهاد في سبيل الله ، واذا بالتحرك الحاسم يكسب الجولة جهادا في سبيل الله وانتصارا لدولة الاسلام والامة الاسلامية في فارس ، وأفلح في القضاء على معقل من أخطر معاقل الوثنية الحاقدة ، وكان البديل اسلاما حتى أصبحت فارس نقطة انطلاق لنشر الاسلام في آسيا الوسطى على امتداد المحاور الارضية •

ـ ويكسب الجهاد في سبيل الله جولة أخرى في الشام ، وتعجز بيزنطة عن استرداد وعيها من بعد ضربات موجعة ، وبلغت الحنكة العسكرية في مواجهة التحدي البيزنطي مداها الاعظم والاهم ، عندما تحول الجهاد الكاسح من بعد حيازة النصر في الشام الى غزو مصر ، وجيش الاسلام المظفر الذي اتخذ من الاستشهاد مطية لكي تنتصر العقيدة وتتعاظم الدولة كان قادرا ـ من غير شك ـ على أن يعبر جبال طوروس وأن يندفع بكل الشجاعة والحماس لكي يضرب بيزنطة في عقر دارها ، ولم تكن جبال طوروس أكثر وعورة وتضرسا من جبال زاجروس التي اقتحموا من خلالها أرض الفرس ، ولم تكن هضبة الاناضول أكثر وحشة من هضبة ايران ، ولم يكن المجاهدون في الشام أقل حماسا أو صلابة من المجاهدين في فارس ، كما لم تكن جيوش بيزنطة النظامية وغير النظامية أصلب عودا من جيوش فارس ، ولكن التحول قد بني في تصور خبراء الحرب وفن القتال على حنكة وبعيدة على أعلى المستويات ، وكان عمرو بن العاص يستشعر النتائج العظمى ان أفلح المجاهدون في غزو مصر وأدخلها انتصارهم في حوزة دولة الاسلام ، وكانت بالفعل جولة مثمرة وناجحة الى أبعد الحدود ، وقد أكسب النصر الاسلام ودولته جملة مكاسب من خلال ضربة ناجحة واحدة . هذا ويمكن أن نتابع هذه المكاسب على النحو التالي :

١ ـ كان الانتصار في مصر يعني اضافة لحساب الاسلام والمسلمين ودولتهم المظفرة ، وتحقق هذه الاضافة دعما بشريا للامة ودعما اقتصاديا للدولة ، وتعني في نفس الوقت فقدانا وخسارة ونقصانا من حساب بيزنطة ينال من رصيدها الاقتصادي والسياسي والبشري في أعز مناطق نفوذها وسيطرتها .

٢ ـ أتاح وضع الاسلام في مصر وانضمامها الى دولة الاسلام فرص التحرك النشط في الارض الافريقية ، وكان الانتشار السريع حاسما على محور عرضي ممتدا من الشرق الى الغرب أو من مصر الى المغرب ، واتخذت دولة الاسلام عندئذ وضعا ممتازا وموقعا مهما باتت تطل بجبهة طويلة على البحر المتوسط ، ومن ثم كانت اضافة حيوية الى رصيد الاسلام ودولته ، ذلك ان الانتشار على هذا المحور أتاح انتشارا على محاور طولية أخرى ، تعبر البحر المتوسط الى اوروبا وتعبر الصحراء الافريقية الى قلب افريقية ، ويحقق ذلك كله فرصا متعددة لانتشار الاسلام وتاكيد دعوته العالمية .

٣ ـ وتحقق المكسب الثالث من خلال ماحظيت به دولة الاسلام من سيطرة فعلية وفعالة على البحر المتوسط . ويتصاعد رصيد الدولة عندما تنتفع بالفعل من هذه السيطرة ومن خلال اشراف مباشر على أهم طريق لتحركات التجارة الدولية ، ومن شأن ذلك أن تقوى بنية دولة الاسلام

اقتصاديا وأن يتعاظم شانها في مجتمع الدول وأن تجد دعوة الاسلام طريقها على المدى الواسع الى أقطار وأقوام كثيرة •

ـ هكذا قاد التحرك الايجابي لمواجهة التحدي خطى دولة الاسلام الى نصر حاسم على كل الجبهات في فارس وفي الشام وفي مصر وفي شمال أفريقيا • وأكد النصر كل معاني التفوق لاستراتيجية الدولة ، وبنى عليه توسيعا لقاعدة الدولة فتحتل مساحات عظمى تمتد من تخوم الهند شرقا الى المغرب والاندلس غربا ، وزيادة في حجم الامة الاسلامية فتضم أقواما وأمما حسن ، وباتت دولة الاسلام تطل على المحيط الهندي والمحيط الاطلنطي وتسيطر على الاذرع المائية ـ الخليج العربي والبحر الاحمر والبحر المتوسط ـ الموغلة في جسمها ، ودعا ذلك الى سيطرة فعلية على موقع جغرافي حاكم لكل التحركات بين القارات الثلاث آسيا وافريقيا وأوروبا برا وبحرا ، وتصاعدت قوة الدولة ووضعها الدولي العام لكي تحكم منطقة القلب من جزيرة العالم (٩) ومن ثم يتحقق لها من خلال ذلك وبكل المقاييس أن تتحكم في كل جزيرة العالم (١٠) وأصبحت دولة الاسلام عندئذ الدولة الاعظم بعد قرن واحد فقط من ظهور الاسلام ، وأتاح التوسع بقدر ماأتاحت المكانة المرموقة في المجتمع الدولي ـ خريطة رقم ١ ـ الفرص الموسعة لكي ينتشر الاسلام على أوسع مدى وبشكل يدعم عالمية الدعوة الى الله •

وتستحق كل هذه النتائج بحثا عميقا بقصد الكشف عن كل نقط التحول الهامة على خط سير الدين والدولة معا • ومع ذلك كانت تتداخل بحيث تؤدي كل نقطة تحول الى نقطة تحول اخرى • ويجب أن نفطن الى انها كانت تكفل النجاح وبشكل أكسب الدولة بقدر ماأكسب الامة دعما وصلابة وتفوقا • ويمكن أن نتابع هذا النجاح على جملة محاور أساسية على النحو التالي :

١ ـ النجاح الذي برهن بالفعل على صلاحية دعوة الاسلام في اطارها العالمي وانفتاحها في دعم بنية الامة • ذلك أنه أفلح في جمع شمل الناس في كل الامصار والاقاليم التي أدخلت في حوزة الدولة وأشركهم في التركيب الهيكلي للبناء البشري ، وترفع الاسلام عن كل مابين هذه الجموع من فروقات في اللغة وفي المستوى الحضاري وفي الانتماء فاذا بهم جميعا أو معظمهم من المسلمين ، وعندئذ انخرطوا في أمة الاسلام • وكانت صلبة قوية تعتز ببنيتها الراسخة وبلحمتها القوية ، وباتت تملأ بكل أسباب الترابط والتماسك الحيز الواسع من الارض في دولة الاسلام العظمى وكان من بين المسلمين في كل من مصر والشام وفارس وغيرها من الامصار من حمل مسئولية الدعوة حماسا لنشر الدين أو من حمل السيف جهادا في سبيل الله واعلاء كلمة الامة والدولة كما كان من بين هذه الجموع التي انضمت للامة الاسلامية من لم يقبل بالاسلام دينا • ولكن الاسلام كفل له ان يتعايش وان يتفاعل بكل الاخلاص وبكل الولاء ، وكانت هذه الاقلية تحفظ حق الدولة وحق الامة وتعتز بالانتماء لها • وكانت الدولة والامة تحفظ لها حقها دون تفرقة

او استعلاء او تميز ، بل لم تستشعر الاقليات اي وضع ينتقص من حقوقها • ومن ثم كـانت البنية البشرية سوية وليس فيها اي صدع يضعفها ، وكانت نقط تحول هامة تاتي بموجبهـا تحول البنية البشرية من تركيبها البسيط المتجانس الى التركيب المركب •

٢ ـ النجاح الذي برهن بالفعل على قدرة الامة الاسلامية والدولة على استيعاب التوسع الهائل ، وبصرف النظر عن الاختلافات البيئية فاذا الدول والاقاليم التي فتحها المسلمون امصارا تتكامل في الاطار الكلي للدولة ، وكانت كفاءة التنظيم الحاكم تكفل هذا التكامل والترابط ، ولـم تستشعر الدولة حاجة لاتباع سياسة الحكم الاتحادي بل كانت له كل خصائص الحكم الموحد • وكانت الكفاءة تتجلى ايضا في استخدام الموارد المتنوعة ، وحقق ذلك التنوع رصيدا ضخما من الانتاج لدولة الاسلام • وكفل التنوع في الموارد والانتاج بيئة اقتصادية متينة ، تتساند فيها قطاعات الانتاج وتتكامل ، كما اصبح اتساع هذه القاعدة الاقتصادية ورسوخها مشفوعا بتصاعد في اهمية الوساطة التجارية وتجارة المرور بين الشرق فيما حول المحيط الهندي والغرب فيما حول البحر المتوسط ، وتبني التفوق الاقتصادي رتفاعا في حجم الدخل الكلي وارتفاعا مماثلا في دخ ل الفرد ، ومن ثم كانت الرفاهية وعاشت الامة في المستوى المعيشي الافضل ، وهذا معناه ان استيعاب التوسع كان استيعابا ينبيء بحسن وسلامة الاسلوب الذي هيا له ان يتـأتى في اطار الدولة الواسعة ، بل لقد بلغ الاستيعاب حدا من النجاح اصبح فيه سبيلا من سبل دعم المركز الاقتصادي المرموق الذي بلغته دولة الاسلام ، واستحقت بكل الجدارة ذروة التفـوق واصبحت مركز الثقل الاهم في مجتمع الدول ، وكانت القدرة على الاستيعاب من غير شك نقطة تحول اخرى صعدت الامة والدولة الى المكانة الاعظم •

٣ ـ النجاح الذي برهن بالفعل على ظهور الاسلام في بيئة حضارية وقبوله بمنطق الحضارة ، وقـد تبنى الاسلام التراث الحضاري لكل قوم من الاقوام التي اسلمت وفي كل مصر من الامصار التي انخرطت في بنيته الدولة الاسلامية ، ولم يكن التبني عبثا بل اخذ الاسلام بتنقية هذا التراث من كل خبيث لايتوافق مع العقيدة ومن كل الشوائب التي ترفضها احكام ومثل الاسلام العليا ، ولم يكن الاسلام متعصبا او متعنتا فمن بعد ان البس التراث الحضاري لباس الايمان ترك لكل لكل قوم ولكل مصر من الامصار حق الاعتزاز بالذات ،وكانت حضارات اسلامية متكامـلة وليست حضارة اسلامية واحدة ، ونذكر منها الحضارة الاسلامية الفارسية والحضارة الاسلامية العربية والحضارة الاسلامية الكردية وما الى ذلك ودعا الاسلام بل وحبذ في نفس الوقت احتكاكا حضاريا مثمرا بشكل اثري التراث الحضاري الاسلامي في اطاره العام ، وكفل بذلك الثـراء الحضاري خليفة حضارية عريقة اصيلة ، وهيا من خلال الانفتاح تنمية حضارية حقيقيـة ،

وتحولت أرض الاسلام الى بوتقة تنصهر فيها الخبرات الحضارية من كل نمط لكي تكون سبيكة حضارية مرموقة (١١) ، ومن ثم كانت أرضية حضارية صلبة ظاهرت التفوق على كل درب من دروب الحياة الثقافية والعلمية والاقتصادية ، وسجلت الصفوة من أبناء الامة الاسلامية اضافات مبدعة للتراث الحضاري البشري بصفة عامة ، وقاد الاسلام من خلال هذه الصفوة مسيرة الحضارة الانسانية وركب الابداع الخلاق في العالم كله •

تقويم الدولة الاسلامية :

ــ لئن سجل التوسع في رقعة دولة الاسلام ونمو حجم الامة الاسلامية ثمرة تأتت من خلال استراتيجية مرنة بنيت على التصدي للتحدي وقهر العدوان فان الانتصار كان مطية للتفوق في كل المجالات ، ومن ثم عاشت الدولة قرونا طويلة عزيزة الجانب في المكانة المرموقة في مجتمع الدول ، ومن الطبيعي أن يحاول البحث تقويم هذه الدولة على أمل الاحاطة بمدى التوافق بين الاصول والمقومات التي ارتكزت اليها الدولة في كل مراحل وجودها وبين الواقع المجرد الذي يعنيه وجودها ووضعها من حيث المضمون السياسي ، ويتجه البحث بالضرورة الى دراسة كاشفة للعناصر التي يتألف من جمعها كيان الدولة ، بمعنى أن نهتم بالناس وتكوين الامة وأن نهتم بالارض تكوين القاعدة وأن نهتم بالتنظيم الحاكم ، ومع ذلك فيجب أن نفطن الى دور الدين الاساسي وأثره الذي يجيء ضمنا مع كل العناصر • ويكون دور الدين من خلال دراسة الناس معبرا عن أثره المباشر في تكوين الامة وفي تجسيم معنى الولاء للارض والتنظيم الحاكم ، ويكون دور الدين أيضا من خلال دراسة الارض معبرا عن أثره المباشر في تكوين الوطن أو دار الاسلام التي احتوت الامة وحققت لها مصالحها وأتاحت للاسلام انتشارا وذيوعا في أنحاء متفرقة ويكون دور الدين مرة ثالثة من خلال دراسة التنظيم الحاكم معبرا عن ارادة الله في فرض صيغة مثلى وتشريع سماوي يخدم مصالح الامة ويعلي كلمة الله ويصون الارض ويحافظ عليها من كل عدوان •

ــ هذا ويجب أن يكون التقويم بعد ذلك كله من غير تزمت فنطل على دولة الاسلام التي عاشت في القرون الاولى من الهجرة بكل الحذر ، ويكون استخدام المقاييس والمواصفات التي نعرفها ونتعارف عليها الآن بكل الحنكة لان الزمان غير الزمان والظروف غير الظروف • وقد يكون مفيدا أن نتحسس العلاقة بين الماضي والحاضر لبيان مدى التوافق وعدم التوافق بين دولة الاسلام الاولى وبين دول الاسلام اليوم من حيث العلاقة العضوية بين الدين والدولة •

الامــة الاسلاميــة :

ـ كان الاسلام حريصا على تكوين أمة ، وقد افلح الرسول صلى الله عليه وسلم في ابداع صيغة او صيغ الترابط بين الناس لكي تكون أمة ، وادت الظروف أول الامر الى بنية بشرية متجانسة الى حد كبير ،وكان تركيب الامة يمثل كيانا بشريا بسيطا لامة تالف في جملته من العرب ، ومع ذلك فان هذه السمة كانت في مرحلة مبكرة أولية ، ثم كانت العوامل التي افقدت الكيان البشري تجانسه وبساطة تركيبه وجعلت منه كيانا مركبا • وقد تاتى التحول من خلال :

١ ـ كان الاسلام لاياخذ بمنطق الخصوصية بل فتح صدره لكل من آمن برسالته وادخله في التركيب الهيكلي للامة ، بل لقد حبذ الاسلام الانفتاح لكي يكون اختلاطا وانصهارا وترابطا بالانساب ، وهذا من شانه أن يخل بالتجانس والبساطة في التركيب البشري بصفة عامة •

٢ ـ كان اتساع مساحة الدولة ودخول معظم الاقوام في تلك المساحات في دين الله مدعاة للانخراط في بنية الامة الاسلامية ، والمفهوم أن هناك مبدأ أساسي يقول (المسلم أخو المسلم) وتوسيع الاطار الذي يجمع شمل كل المسلمين لكي يدخلهم في الامة من شانه أيضـــا أن ينهي حالة التجانس تماما وأن يفرض نمطا غير متجانس بصفة عامة •

ـ والاسلام الذي أدخل كل مسلم في اطار الامة ترفع بالفعل عن انتزاع الناس من ذاتهم واحتفظ لهم بهوية يعتزون بها وبلغة تعبر عن انتمائهم وادى ذلك الى تركيب من نوع جديد أبعد مايكـون عن التجانس ، وأصبحت الامة الاسلامية تضم أقواما يعتز كل قوم منها بذاته ، ومنهم من كان يعتـــز بالعروبة ، أو يعتز بالفارسية أو يعتز بالكردية أو يعتز بالتركية وغيرهم كثير ، واتخذت بنية الامـة الاسلامية شكلا يصور نموذجا حقيقيا للكيان البشري المركب (١٢) ومعنى ذلك أن ولاء المسلم نحــو الامة الاسلامية كان لايسقط عن هذا الشخص ولاءه نحو القوم الذي ينتسب اليهم • وكان المطلوب بالضرورة عدم التعارض بين هذين الولائين ، الاوسع نحو الامة والاضيق نحو القوم •

ـ وأمة هذا شان تركيبها يكون مطلوبا من كل الاقوام التي تدخل فيها تصعيد الولاء الاوسع على الولاء الاضيق ، ويكون ذلك على أمل أن تكون الفكرة التي تستقطب الاقوام وتجمع شملهم وتشـــدهم نحو المصالح المشتركة عظيمة الاهمية ، ولما كانت هذه الفكرة نابعة من العقيدة ومن مبادئها ومثلهـا العليا فقد حرصت دولة الاسلام على تاكيدها وكفلت حق المشاركة الفعلية لكل الاقوام في المصـــالح الحيوية التي تتحقق من خلالها ، وكان من الضروري أن يتاتى ذلك بقدر كبير من التـــوازن ومن غـير تفرقة أو تمييز أو تصعيد حق قوم على حق قوم أو أقوام أخرى وحتى لايكون أي خلل يضعف من فاعلية الفكرة وقوة جذبها ، ومن ثم كانت الاخوة في الاسلام لاتعني رباطا يشد المسلم الى المسلم فقط ، بل

كانت تعني اكساب كل مسلم في الامة حق المواطنة كاملا له ما لغيره من حقوق وما عليه ما على غيره من واجبات ، وهذا نمط من انماط الترابط الذي ظاهرته عقيـــدة السماء وفرضت شكله من خـــلال المساواة .

ـ هذا ورغم توسع دولة الاسلام من خلال الغزو والضم ونمو حجم الامة الاسلامية من خـــلال انتشار الاسلام ، فان انخراط الناس في بناء الامة لم يشعرهم بقهر او بتسلط ، بل كان الكل اخوانا يسوي بينهم الاسلام بصرف النظر عن غالب ومغلوب ومن غير تعصب للعرق او للغة او للمستـــوى الحضاري وغير ذلك مما يميز الاقوام ، وازدادت البنية في الكيان البشري المركب تماسكا وقوة من خلال عاملين هامين همـــا :

١ ـ عامل بشري دعا اليه الاسلام واتخذ منه مطية لكي تتعاظم الروابط وتتاصل العلاقات ، وكان الانفتاح من غير شك سبيلا لاختلاط ومصاهرات اقامت روابط عرقية كما ادى الانفتـــاح الى اختلاط نما معه الاحساس بالانتماء وقد افلح الانفتاح في اشاعة الارتباط باللسان وكان مطية للتعريب على مدى واسع .

٢ ـ عامل طبيعي فرضته مسالة الموقع الجغرافي في مساحات الارض التي ادخلت في حوزة المسلمين ودولة الاسلام ، واتاح هذا الموقع دعم وتاكيد معنى ونتائج الانفتـــاح وما يترتب عليـــه من اختلاط ومصاهرات ، وكان الاختلاط بين المسلمين وبين الاقوام من حولهم في افريقيا وآسيا واوروبا يفتح بابا لانتشار الاسلام من ناحية ويسمح بتاثير سلالي متبادل من ناحية اخرى ، وما من شك في انه يعني بالضرورة زيادة في حيوية الامة من وجهة النظر البيولوجية ، مثلما يعني توثيق الصلات والروابط ، وليس من الغريب ان تتخذ بنية الامة الاسلامية من خلال هذا الانفتاح خصائص السبيكة المعدنية التي تجتمع فيها كل خصائص المعادن المكونة لها .

ـ ولئن كان الانفتاح وصية اسلامية نابعة من تقاليده وكان الاختلاط نتيجة منطقية او استجابة لظروف دعا اليها الموقع الجغرافي فانهما معا لم يطمسا كل معالم التكوين البشري المركب للامة في اطار دولة الاسلام ، بل لقد احتفظت الاقوام باهم مايمكن ان يحفظ لها هويتها واعتزازها بذاتها وتمسكها بتراثها بشكل لايتعارض مع الاسلام ومثله العليا او مع وضعهم في الاطار المركب لامة الاســـلام ، واحتفظ الفرس بفارسيتهم وهم مسلمون والاكراد بكرديتهم وهم مسلمون والاتراك بتركيتهم وهـــم مسلمون والعرب بعروبتهم وهم مسلمون ، ثم هم جميعا لبنات سوية في البنية البشرية المركبة لامـــة الاسلام ، وكان التوافق بين اخوة يفرضها الاسلام فتتماسك هذه الاقوام جميعها وتدخل في تركيب الامة وذات ومقومات تعتز بها تلك الاقوام حيويا لكي تحافظ الامة الاسلامية على وضع سوي في الدولة وافلحت سماحة الاسلام ومثله العليا في فرض المساواة وتصعيد حجم المصالح المشتركة التي تستقطب

كل الاقوام المسلمة وتحقيق التوافق وكبح جماح أي تضاد يعرض البنية البشرية المركبة للخطـــر أو للتمزق ، وآمن كل مسلم بانه اخ لكل مسلم أولا وقبل كل شيء ٠ وهذاالتزام اسلامي يتفوق على أي التزام آخر قبل هوية أو ذاتالقوم الذيينتمي اليه المسلم ، ويواجههذا الالتزام أياحتمالمناحتمالات الخلل الذي يمكن أن يتاتى من خلال اثارة نعرات ضيقة متعصبة ومن ثم تضييق الخناق على قوم من الاقوام المسلمة عندما تستعلي باحاسيسها وبولائها تجاه هذه النعرات ، ويصبح الخطر شديدا على نمط الترابط الذي يفرضه الاسلام ، وقد تتعرض البنية البشرية للامة لصدع يؤدي الى التمزق ٠

ـ ومن خلال هذه الاحاطة بالواقع الذي عاشه الناس الذينجمعهم الاسلام وصنع منهم أمة ، يمكن ان نخرج بنتيجة هامة ومنطقية ، وتعطي هذه النتيجة مقياسا مناسبا لايضاح التقويم الحقيقي لتركيب البنية البشرية لامة الاسلام ، والمعروف أن هذه الامة قد تماسكت اوصالها وأفلح الاسلام في جمـــع شملها على مدى عدد من القرون ، وقد واجهت هذه الامة التحديات مرتين ، وكان التصدي مختلفا من حيث الاستجابة لهذه التحديات وكانت هذه التحديات في المرة الاولى على عهد أمراء المؤمنين عثمان وعلي رضي الله عنهما وعلى عهد الامويين والعصر العباسي الاول ، وقد اقترنت بصراع تصاعد ساخنا من داخل الدولة ، وربما هزت هذه الصراعات البنية البشريةللامة ومع ذلك فقد أخفقت في تمزيقها ، وبني ذلك الاخفاق على أمرين هما :

١ ـ ان التحديات كانت بالدرجة الاولى من قبيل تصعيد المنافسات الى صراعات احتدمت على السلطة في الدولة ، بمعنى أنها لم تكن تحديات موضوعية تجد الاستجابة من القاعدة العريضة للامة ، وربما كان الصراع عنيفا في بعض الاحيان يطفح على السطح وتتضرر به الدولة ، كما كان من غير عنف في بعض الاحيان الاخرى ، ومع ذلك فان الصراع على السلطة أو من أجل التسلط في كل شكل من اشكاله لم يحمل الدلالة أو العلامة التي تنبيء بان ثمة رغبة جامحة تستهـــدف بالقصد أو بدون القصد تمزيق كيان الامة وتقويض وحدة الدولة ، وهذا معناه أنها لم تكن تحديات هدامة او صراعات مدمرة ٠

٢ ـ ان التلاحم الذي فرضه الاسلام بين الناس وخلق التكوين المركب الذي يدخل المسلمين مع غير المسلمين في بناء قوى متماسك لم يسمح للصراع على السلطة أن ينـــال منه أو من تماسكـه وصلابته ، ولم تكن ثمة استجابة أو تعصب لفريق على حساب فريق آخر ٠ كما لم يكن ثمـة استقطاب لفريق من الامة او لطائفة بقصد مواجهة فريق آخر ٠ وهذا معناه أن المتصارعين لم يستنفروا في أمة الاسلام نعرات اقليمية أو طائفية او عرقية أو وطنية ، وينبيء ذلك بأن المتصارعين على السلطة لم يتغذوا من الهدم والتخريب مطية لتحقيق أهدافهم ٠

ـ وكان عدم المساس بالنية البشرية المركبة والمحافظة على سلامة تماسكها حافظ على كيان الامة ، وحافظ بالتالي على كيان الدولة الموحدة ، ولم تتمزق الامة بالفعل الا عندما نالت التحديات من البنية

البشرية وكانت نكسة خطيرة ، وهز استنفار النعرات البنية البشرية هزا عنيفا أحدث الصدوع وهيا لها أن تتمزق ، وهذا معناه أن نقطة التحول من بنية قوية الى بنيةممزقة يكمن في طبيعة الشكل المركب ، ذلك أنه أتاح للتحديات المغربة أن تفلح في تمزيق وحدة وتماسك الامة ، ويبدو أن النعرات الاقليمية والشعوبية والقومية والطائفية كانت تتخفى بعض الوقت ، فلما وجدت من أشمل جذورها تصاعد الولاء الضيق نحو الذات لكي يتفوق على الولاء الاوسع نحو ذات الامة الاسلامية المتكاملة •

الارض الاسلاميــــة :

ـ احتلت دولة الاسلام مساحة هائلة من الارض في كل من آسيا وافريقيا وجنوب أوروبا ، ويكون القصد أن تقوم هذه الارض في أقصى اتساع لمساحتها الهائلة وعلى امتدادها طولا وعرضا ، وحسبنا أن تكون الدراسة كاشفة لخصائص هذه الارض كقاعدة لدولة الاسلام وهي في عز تطلعها وطموحهـــا لانتشار العقيدة واعلاء كلمة الله في أنحاء العالم ، كما تستهدف بيان مدى استجابتها لحاجات الناس وهم يستخدمون الموارد المتاحة من ناحية ولحاجات الدولة وهي تتحمل مسئولياتها وتلعب دور القوة الاعظم بين كل القوى في العالم من ناحية أخرى •

ـ هذا وكان توسيع مساحة الدولة يتأتى بشكل سريع ومن خلال اضافة أقاليم وأمصار علىمحورين رئيسيين هما ، المحور الآسيوي والمحور الافريقي ، واستطاع الاسلام أن يهيء الترابط بين مجمـوعة الامصار ألتي كانت في نفس الوقت أوطانا لاقوام دخل معظمها او كلها في دين الله وفي طاعة الدولة التي تتألف من أوطان كثيرة ومتنوعة لكي تمثل عالما • بمعنى أنمساحة الارضاكسبت الدولة الشكل العالمي بالفعل ، وما من شك في أن طبيعة هذا الشكل ومدى التنوع فيه استوجب خطة مرسومة بكـل الحنكة تستوعب التباين وتربط ربطا فعالا بين الاوطان الداخلة في اطار الدولة ، ولعب الاسلام دورا رائدا في وضع وتنفيذ هذه الخطة لكي تتخذ الدولة في شكلها العالمي ومساحتها العظمى مكانتها وكـل مؤهلاتها لكي تمارس دورها البناء وتتحمل مسئوليتها الكبرى ، وأفلحت دولةالاسلام في ترسيخ وجودها في الموضع المنيع والموقع الحاكم بقدر ماأفلحت في تصعيد مكانتها الاقتصادية من خلال التنوع في موارد الارض

ـ ولم يتحقق الوضع المنيع للارض من خلال اتساع المساحة وما يترتب على ذلـك من أعمـاق استراتيجية فحسب بل تحقق بالفعل عندما بلغ التوسع حد الحدود أو التخوم الآمنة ، وبلغ التوسـع على المحور الآسيوي السلاسل الجبلية الالتوائية العظمى التي تتجمع في عقدة بامير في قلب آسيا الوعر ، وكفل ذلك تخوما مضرسة وحدودا مؤمنة من خلال سيطرة على الممرات والثغرات في تلك السلاسـل الجبلية ، وهذا من شأنه أن يجنب أرض الدولة وسكانها خطر المباغتة التي يمكن انتحمل فيها جماعات من قلب آسيا على جناح الدولة الاسيوي ، ولئن كفل التضرس القسط الاكبر من الامان فان ذلـك

الوضع قد كفل أيضا فرصا لان يطل الاسلام من خلال الثغرات والممرات ومن خلال الطرق والدروب على مساحات هائلة من آسيا ويصبح الاسلام على اتصال مباشر معها ، وحقق النشاط والتحرك الاسلامي النشط مقترنا بالوساطة التجارية نجاحا في نشر الاسلام وغرس نبتة الايمان بالله في مساحات واقاليم وبين جماعات واقوام فيما وراء تخوم الدولية الوعرة وصولا الى الصين والى الهند ، وكان تحرك الدولة على هذا الجناح الاسيوي ناجحا بالفعل لانه ، (١) افلح في نشر الاسلام وتصدير الايمان بالله الى ماوراء حدود الدولة (٢) وافلح في توقيف توسع الدولة عند التخوم التي تؤمن الدولـــة وتمكن من الدفاع عنها ، وكانت السيطرة على الثغرات والممرات تكفل للدولة لو شاءت من بعد أن تلتقط أنفاسها مزيدا من التوسع فيما وراءها •

ـ أما التوسع على الجناح الافريقي فكان أكثر نجاحا وتوفيقا ، ذلك أن التوسع على امتداد المحور العرضي من مصر الى المغرب يضع أرض الاسلام في الوضع الامثل من وجهات نظر مختلفة ، ويكسب هذا الامتداد الاسلام فرصة الحركة المرنة ، بمعنى أن تصبح الجبهة التي تطل بها الارض على البحر المتوسط نقطة نطلاق للتوسع والانتشار جنوبا عبر الصحراء الافريقية الكبرى الى القلب الافريقي وشمالا عبر البحر المتوسط الى جنوب أوروبا ، ويكسب الامتداد الارض في نفس الوقت منعة وأمانا ، ذلـــك أن توسعها على هذا الجناح بلغ تخوما صحراوية عظيمة المساحة تؤمنها كحاجز مناخي هائل • وكان تحرك الدولة على هذا الجناح موفقا لانه : (١) افلح في نشر الاسلام وتصدير الايمان بالله الى ماوراء التخوم الصحراوية الى القلب الافريقي • (٢) وافلح في التوسع في شبه جزيرة ايبريا على أن تكون نقطة انطلاق للاسلام وصولا الى أوروبا الوسطى والغربية ، وأضيف الى ذلك كله نجاحا في تعريب شبه شامل عـــلى امتداد الجناح الافريقي من أرض الاسلام •

ـ هذا وتأتي لارض الاسلام في اطار دولته الكبرى موقعا جغرافيا حاكما من خلال سيطرة مباشرة على البحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج العربي ، وكان اشراقا مثمرا وفعالا للتحركات وتجارة المرور على المحاور البرية ، وما من شك في أن صعدت مكانة الدولة وصولا الى الوضع الاعظم في مجتمع الدول آنذاك ، وأصبح لها المركز القلب من جزيرة العالم وامكانات الحركة المرنة بين الشرق اولغرب وبين الشمال والجنوب ، ويكون الوضع بكل المقاييس الاستراتيجية أن تبدو الارض الاسلامية في وضع يحكم قلب جزيرة العالم ، ومن ثم تستطيع أن تتحكم في جزيرة العالم كلها ، ولم تكن ثمة فرصة لقيام قوة أخرى تضارعها أن تدخل في احتمال توازن مع أرض الاسلام ، ذلك انها اكتسبت مكانة القوة البرية في القلب الواسع من اليابس ومكانة القوة البحرية من خلال جبهـــات طويلة على المحيطين الهنـــدي والاطلنطي وسيطرة كاملة على الاذرع المائية الممتدة على محاور تتجمع من حول الشام ومصر وجزيرة العرب في القلب الاوسط بين جناحي الدولة الاسيوي والافريقي (انظر خريطة رقم ٢) •

ـ ولئن كان امتداد الارض التي قامت فيها دولة الاسلام الى تخوم تظاهرها ظاهرات طبيعيـــة

وتحميها قد وضعها في الموقع الجغرافي الممتاز الحاكم ، فان التنوع في خصائص البيئات والاقاليم فيها قد أكسب الدولة ووجودها الاقتصادي مزيدا من الدعم ، وكفل هذا التنوع بالضرورة تنوعا في مصادر الثروة ، وبنى على ذلك تنوعا بالضرورة في الموارد المستخدمة • ومن ثم كانت الارض تهيء في الامصار والاقاليم الفرصة المثلى لبنية اقتصادية قوية ، ويساند في تكوين هذه البنية استخدام موارد الثروة الزراعية والحيوانية وغيرها من الموارد المتباينة ، واشترك الانتاج من كل قطاع من قطاعات الحرف الاولية كالزراعة والحيوان والصيد مع قطاع التجارة مع كل قطاع من قطاعات الحرف الثانوية ممثلة في الصناعة في اكساب الاقتصاد جملة صفات هامة نذكر منها :

١ ـ التكامل بمعنى أن هذه القطاعات كانت تشترك بحصص في الناتج الكلي ، وكان الاشتراك منسقا يكفل الحاجات وبشكل أتاح فرصة عظمى لأن تلبي الاقاليم احتياجات بعضها البعض الاخر ،ويعبر ذلك عن درجة عظمى من حيث نشاط التسويق الداخلي في اطار الدولة ، كما يعبر عن نشاط آخر في مجال التسويق الخارجي وفي الدول والاقاليم وراء الدولة •

٢ ـ التوازن بمعنى أن الحصص التي تسهم بها تلك القطاعات في الناتج الكلي كانت لاتنبيء باسراف في استخدام بعض الموارد وباحجام عن استخدام بعضها الاخر ، وكان التوازن يحقق التساند بين قطاعات الانتاج بقدر ماحقق أهداف الاستهلاك من كل قطاع •

ـ هذا وكان الاقتصاد المتكامل المتوازن دليلا على تفوق الاسلام في استيعاب ظروف الارض وخصائصها وعلى قدرته على سيطرة فعالة في مجال استخدام الموارد المتاحة فيها ، ومن ثم كان كفيلا بحياة طيبة عاشتها الامة وبمستوى معيشي مناسب حظي به معظم الناس • هذا بالاضافة الى مساندة طموح الدولة ودعم تطلعاتها في اطار مجتمع الدول في ضوء مكانتها المرموقة ، وقد تعاظم البناء الاقتصادي وزاد رصيد الدولة زيادة كفلت النمو الحضاري وريادة وقيادة في كل مجال من المجالات التي أثرت الحضارة البشرية بصفة عامة • واستفادت الدولة من خبرات الامة في استخدام الارض الى أقصى حد ممكن من غير تغول أو من غير استنزاف لمواردها • وتصاعدت هذه الخبرات من قواعدها الحضارية الصلبة لكي تقود مسيرة الاقتصاد والحياة الاقتصادية وكل سبل الانتفاع بالارض نحو التقدم والغنى •

ـ ولئن أعطت الارض قاعدة صلبة استوعبت نشاط الامة واستجابت لطموح الدولة ولمسئوليتها العظمى ، فان الامة والدولة تحملها الجهد كله من اجل استخدام الارض ، واستطاعت الدولة من خلال سيطرتها المركزية أن تخفف الى حد ما من أثر سوء التوزيع في الموارد المتاحة في الاقاليم ، واستهدفت الا يكون التفاوت كبيرا بين الامصار من حيث الفقر والغنى ، وصعدت الدولة اهتمامها بتجارة المرور وكان تمريرها يستخدم طريق البحر او الطرق البرية ، وكانت تؤمن الطرق وتكفل سلامة

الحركة بصفة عامة ، كما أولت الاهتمام للموانيء وتقديم الخدمات للسفن ، بل لقد بلغت البحرية الاسلامية التجارية حدا من التقدم والتفوق بشكل أعطى للمسلمين دورا رائدا في ركوب البحر ، وأتاح الازدهار الاقتصادي في ربوع الارض الاسلامية وفي اطار دولة الاسلام التفوق في كل مجال من مجالات الحياة ، واصبحت دولة الاسلام في ذروة العظمة •

الحكـومة الاسلاميـة :

ـ لانود ان نوغل في تفاصيل عن الحكومة التي قادت الامة الاسلامية ومسيرة الاسلام على الارض الاسلامية حتى لا نخرج عن سياق بحثنا ، ولكن يجب علينا ان نعالج هذا الموضوع لكي نتبين شكل التنظيم الحاكم كبعد متمم لوجود الدولة بصفة عامة ، والمفهوم أن هذا التنظيم الحاكم قد أوجـده الوضع الذي تاتى من بعد هجرة الرسول وصحبه الى المدينة ، واتخذ مقوماته من صميم العقيدة وخـلا من كثير من تعقيدات في شكل وتركيب النظم الحاكمة في مجتمع الدول آنذاك • وربما دعت كل الظروف التي أحاطت بالدولة ذلك النمط البسيط لحكومة تفرض نظاما وانضباطا في مساحة محدودة وبين جموع قليلة من رعاياها ، كما لم تنعم الدولة بحالة سلم تهييء الفرص لتطوير التنظيم الحاكم ، بل كانت في وضع يشد كل الاهتمام والجهد للتصدي للعدوان والتحدي الكافر من حولها ، كما لم تتهيـأ للرسول صلى الله عليه وسلم من بعد فتح مكة فرصة اعادة النظر في شكل التنظيم وفي تركيبه •

ـ هذا ونسجل في هذا المجال دور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في اعادة تشكيـل التنظيم ، وكان دوره ايجابيا وبناء وحفزته الى ذلك عوامل كثيرة ، ونذكر منها اتساع مساحة الدولة وزيادة حجم المسلمين والامة ، واصبح على التنظيم الحاكم أن يتحمل مسئوليته العظمى من خلال تشكيل يكفل الصالح ويفرض مشيئة وشريعة الاسلام ويحفظ الحقوق ، ولجأ الى الابتكار بقـدر ما لجأ الى الاقتباس لكي يكون الشكل والتركيب الهيكلي للتنظيم مسايرا لروح العصر ولحاجة الدولة والناس فيها وملتزما بالاسلام وشريعته الربانية ، ولم يكن غريبا أن تقتبس الدولة من تنظيمات في الامصار والاقاليم التي أدخلت في حوزة الدولة الاسلامية ، بل لقد عبر ذلك عن منطق سليم يقبل بمبدأ الاخذ والعطاء من غير حرج وبصرف النظر عن غالب ومغلوب ، وكان الهدف الحقيقي في نهاية الامر هـو احداث واتباع التنظيم الحاكم والمنضبط الذي يناسب أوضاع الدولة ويحقق المصالح المثلى للحكم الرشيد فيها •

ـ وتصاعد فن بناء التنظيم من بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت اضافات وتحسينات على عهد الامويين والعباسيين دعت اليها ظروف الدولة وتعاظم حجم المسئوليات على الحكومة ، وكان النظام في صورته الكلية بديعا يجمع بين المركزية واللامركزية في وقت واحد ، وتتجلى المركزية من خلال الارتباط بالولاء وكل السمع والطاعة للخليفة امير المؤمنين على اعتبار انه قمة التنظيم وصاحب

السلطة ، اما اللامركزية فقد بنيت على أساس من العلم باتساع مساحة الدولة من ناحية والتنوع الشديد او التباين بين الامصار والاقاليم • ومن ثم دعا ذلك لان يكون لكل اقليم حاكم او والي من قبل الخليفة يتحمل المسئولية وتكون له صلاحيات معينة لاتتضاد من النظام المركزي للسلطة ، ويجب أن نفطن الى أن هذا التنوع والقبول بشكل لامركزي للسلطة استجابة لظروف كل اقليم وشخصيته الحضارية والاقتصادية والبشرية لم يترتب عليه جنوحا نحو مايعرف الان باسم النظام الاتحادي ، بل كانت الدولة في شكل يتخذ خصائص وسمات النمط المعروف باسم الدولة الموحدة •

ـ هذا ولم تكن مركزية الحكم صارمة أو متعنته بل اتخذ شكل التنظيم مرونة كاملة ، وكانت هذه المرونة مطلوبة بشكل يكفل النظام والتنظيم وضمان الامن والانضباط وقضاء المصالح من غير تعقيدات يفرضهطا البعد المكاني عن مركز الخلافة في عاصمة الدولة • وكان الوالي العامل على قمة التنظيم الحاكم في كل مصر أو اقليم مسئولا مسئولية مباشرة أمام الخلافة • وكانت الداوين تشترك مع الوالي في تطبيق النظام الحاكم وتعبر عن روح المركزية بالفعل • ويؤكد البحث عن دراية وتقدم حقيقي في فن الحكم وتحمل المسئولية بشكل لبى حاجات الامة واظهر الدولة في صورة مشرقة • وباتت الدولة بمفهوم زمان مضى منذ ثلاثة عشر قرنا في وضع ممتاز من حيث المكانة المرموقة • وكان النظام الحاكم يؤكد التصاعد ويسهم بالاساليب المنضبطة في تعاظم شان دولة الاسلام في عالم تحولت فيه كل الدول وكل القوى الى النمط القزمي ، بل اندثرت مسالة توازن القوى بين قوتين ـ الروم ، والفرس ـ اللتين كانتا تحكمان وتتنافسان وتتصارعان في المنطقة من قبل تصاعد القوة والنظام الاسلامي في دولة الاسلام العظمى ، ومع ذلك فان التفوق والتعاظم لم يكن يغري حكومة الاسلام ونظامه الحاكم بان يتسلط تسلط المارد في دنيا الاقزام • ولم يتخذ التنظيم الحاكم من الشموخ السياسي والاقتصادي والحضاري مطية للتحكم في مصير العالم • بل كان تنظيما وكانت دولة للمثل العليا ، وكان الاسلام يكبح جماح التسلط ويفرض على الامة وعلى التنظيم الحاكمأن تكون دولتهللغير واشاعة التقوىوالبر والدعوة الى الله •

ـ وكان اختيار موقع العاصمة في الدولة التي اتخذ التنظيم الحاكم فيها النمط المركزي نابعا من الاحساس بمسئولية قبل الامة وتامين مصالحها وقبل مكانة التفوق في مجتمع الدول • وكانت المدينة المنورة عاصمة في المرحلة الاولى وعاشت فيها قمة السلطة بعض الوقت • وما من شك في أن التوسع وما تحقق من تحول الى وضع أصبحت فيه الدولة الاعظم من خلال مساحة عظمى في موقع جغرافي حاكم ومن خلال أمة كبير مركبة دعا الىانتقال العاصمة الى دمشق في مرحلة والى بغداد في مرحلة تالية • وبصرف النظر عن معنى انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد فان اخراج مركز الحكم من المدينة المنورة كان منطقيا ، ذلك انه سعى الى موقع مناسب في قلب القلب من مساحة الدولة العظمى ، ولاتتمثل اهمية الموقع على مستوى تحركات تجارة المرور فقط بل لتوسطه بين جناحي الدولة في كل آسيا وافريقيـة •

ـ هذا وما من شك في أن نقل العاصمة عبر في كل مرة عن نتيجة من نتائج النزاع على السلطة بمعنى أن العامل السياسي كان من بين اهم العوامل التي دعت لانتقال العاصمة في ظل الامويين الى دمشق ، كما كان بالمثل عندما انتقلت العاصمة على عهد العباسيين الى بغداد ، ويضاف الى ذلك عامل اقتصادي حيث كان الانتقال استجابة للواقع الاقتصادي الافضل للمدينة التي تتخذ موقعا للسلطة المركزية • وهذا امتداد لما كان من أمر الخروج من الجزيرة العربية الى ارض الشام على اعتبار انها بلاد أكثر مطرا وغنى وتكفل حياة افضل ، وتعدد العوامل لايقلل من الحرص على أن تكون العاصمة في الموقع الافضل لممارسة الحكم على امتداد الدولة العظمى في جنوب غرب آسيا وشمال افريقية (خريطة رقم ٣) •

ومهما يكن من أمر فان دراسة دولة الاسلام من وجهة نظر الجغرافية السياسية دراسة موضوعية من خلال النشاة والصمود والتوسع وصولا الى مكانة الدولة الاعظم بين دول العالم تضع بين أيدينا جملة نتائج مهمة • ونسجل هذه النتائج فيما يلي : ـ

١ ـ برهن الاسلام بالفعل على علاقة عضوية أصيلة بين الدين والدولة ، ونتبين ذلك من خلال فهم مطلق بان الجهاد في سبيل الله يخدم مصالح الدولة ويؤمن أوضاعها ، كما نتبينه من خلال اهتمام الدين ومثله العليا بصياغة البنية البشرية للامة الاسلامية لكي تملأ الحيز في الدولة بكل الكفاءة والولاء ، وكفل المنطق الاسلامي قبولا بتحول البنية البشرية من الشكل البسيط المتجانس الى الشكل المركب غير المتجانس ، وكانت هذه البنية في كل شكل من هذين الشكلين متينة وقوية واستجاب ترابطها لتطلعات الاسلام ولتطلعا الدولة في وقت واحد ، ويظهر التطبيق العملي للصيغة المثلى في مجال بناء الامة قسطا أكبر من المرونة وعدم الجمود ، وفتح الاسلام صدره بكل السماحة لكي يدخل في التركيب الهيكلي للامة غير المسلمين ، وقد استوعبهم الواقع البشري وكانوا شركاء المسلمين في المواطنة ، بل وجاء الاستيعاب مشفوعا بكل ما من شانه أن ينسق لاوضاعهم ويحدد بكل الاهتمام مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات وافلح الاسلام في اشاعة النمط المامون من تعايش وتعاون ومن غير أن تستشعر الجماعات غير المسلمة بوضع تعاني فيه من حيث كونها اقلية ، ومن ثم انخرط غير المسلمين في كيان الامة ومارسوا الحياة العادية واسهموا في مسيرة التقدم بصفة عامة ، ولم تكن الجزية التي أعفي منها غير القادرين ضريبة تثقل كواهلهم أو تنبيء بخضوعهم ، بل كانت في تقدير معظم الباحثين تعويضا عادلا عن اعفائهم من حمل السلاح والتصدي للعدوان ومن الالتزام بالخدمة العسكرية التي كانت في تقدير الاسلام جهادا في سبيل الله يلتزم به المسلمون (١٣).

٢ ـ برهن الاسلام بالفعل على حيازة ارض يتخذ منها قاعدة كدولة بقدر مابرهن على عالمية الدعوة وحفز المسلمين لكي يتحملوا مسئوليتهم بكل الاساليب ، وقد اقام بالفعل دولته لدى أول نجاح

في حيازة مساحة من الارض في المدينة وما حولها ، واتخذ الاسلام من هذه الارض منطلقا يستهدف دعم الدين وانتشاره ودعم الدولة من خلال التحرك الايجابي النشط والتصدي للتحديات الكافرة على كل المستويات وبلا هوادة ، ولا ننكر أن ثمة عبقريات فذة قد لعبت دورها بكل الكفاءة وبكل الايمان في قيام الدولة وتاكيد الصلة العضوية بينها وبين الدين ، بل ان الدين والحماس الديني كان حافزا لكل الطاقات المبدعة في مجال مواجهة التحدي للدين والدولة ، وهيا الدين شحنات خلاقة استطاعت أن تصمد وأن توسع قاعدة الدولة وأن تتيح الفرص الموسعة لانتشار الدين في وقت واحد ، ويبدو أن التفوق وفرض مشيئة الله على كل تحدي من التحديات كان يقودها الدين ويؤدي اليها ، وحقق ذلك كله رصيدا من الخبرة للدولة وجهها الى مزيد من التفوق ، وأصبح مؤكدا أن التصدي للدفاع عن الدولة هو — من غير شك — من قبيل التصدي للدفاع عن الدين والعكس صحيح وباتذلك من مسؤوليات المسلمين جميعا وتتحمل الدولة مسئولية التنظيم والتوجيه والمظاهرة ذلك أن الجهاد في سبيل الله عبر دائما عن معنى هذه المسئوليات لدى كل احساس بخطر ولدى كل ردع لعدوان على الدين أو على الدولة وكانت استراتيجية الهجوم بقصد الدفاع توجه هذا الجهاد وتنظم تحركاته ، وكانت الدولة كما كان الدين يجني ثمار كل نجاح يتحقق من خلال الجهاد •

٣ — برهن الاسلام بالفعل على أن استراتيجية التحرك المرن أمنت له دولة وكونت أمة بقدر ماحفزتهما معا للانطلاق المبدع في الحضارة ، وكان الاسلام يعيش الحضارة ويمارسها بالفعل ، بل انه ظهر في بيئة حضارية ونما في احضانها ، واستوحى من دور مكة المكرمة الرائد في المجالات الحضارية بعدا حضاريا يتحمل مسؤوليته • ذلك أن مكة المكرمة والمدينة المنورة عاشتا على المدى الطويل في اطار الواقع الذي تهيأ من خلال الوساطة التجارية لاحتكاك حضاري بناء بين حضارات عاشت في ظهير الارض التي تطل على البحر المتوسط وحضارات عاشت في ظهير الارض التي تطل على المحيط الهندي ، ومن ثم كان استيعاب الحضارة وكانت ثمرة الاحتكاك الحضاري أرضية وقاعدة راسخة من وجهة النظر الحضارية • وما من شك في أن توسيع رقعة الدولة وزيادة حجم الامة دعا لفرص أرحب وأشمل لاحتكاك حضاري أكثر اثمارا وعطاء ، وقبل الاسلام بمبدأ الاخذ والعطاء بين الحضارات بصرف النظر عن أوضاع يكون فيها غالب أو يكون فيها مغلوب • وقبل الاسلام أيضا بان تحتفظ الانماط الحضارية في اقاليم الدولة وأمصارها بهويتها وذاتها شريطة أن تنقي نفسها من كل الشوائب التي لايقبل بها وترفضها شريعته السماوية ، وساند التفوق الاسلامي مسيرة الحضارة بشقيها المادي والروحي وحبذ ريادة الامة الاسلامية للحضارة البشرية كتراث بشري مشترك لمصلحة كل الناس في أنحاء العالم ، ومن هذا المنطلق كان الابداع وكانت الاضافات ، وكان الجهد الحضاري البناء الذي أثرى الحضارة البشرية بصفة عامة •

٤ ـ برهن الاسلام على دعم الدولة في اطار المساحة العظمى والانتفاع بكل المزايا الاستراتيجية التي تحققت بالفعل ، ولم يستهدف من خلال ذلك بلوغ الدولة المكانة الاعظم في العالم فقط بل استهدف أيضا دعم كل الجهود الرسمية وغير الرسمية لنشر الاسلام وتاكيد عالمية الدعوة ، وكان التوسع على المحاور الاساسية في كل من آسيا وافريقيا يكفل بالضرورة دعم العمق الاستراتيجي بكل أبعاده المكانية والبشرية والاقتصادية ، وينبيء استمرار وجود الدولة متخذة مكانتها المرموقة على مدى عدد من القرون بان قيام دولة الاسلام ونظام الحكم فيها قد تاتي على اسس سليمة وقواعد أصولية ، لذا ولئن لم تكن مسالة توازن القوى قد ظهرت في اطار نظرية محددة في ذلك الوقت فان وضع الاسلام وتفوق دولته في موضعها الحاكم من جزيرة العالم قد تصاعد لكي تتحكم هذه القوة في العالم المعروف آنذاك ، وكانت لها خصائص القوة البرية وخصائص القوة البحرية في وقت واحد وبشكل لم يحقق أي احتمال لقيام قوة تتصدى لها أو أن تقيم نمطا من أنماط التوازن من خلال المنافسة معها ، ومع ذلك فقد اقترن التفوق والتحكم بريادة الخير لمصلحة البشر جميعا ومن غير تسلط غاشم أو تغول بغيض أو بطش مدمر ، لجمع أسس سليمة وقواعد أصولية ، هذا ولئن لم تكن مسالة توازن القوى قد ظهرت في اطار نظرية بريادة الخير لمصلحة البشر جميعا ومن غير تسلط غاشم أو تغول بغيض او بطش مدمر ٠

ـ وبعد هذا تصور موضوعي من خلال فهم جغرافي للواقع التاريخي الذي يحكي قصة الاسلام ودوره الفعال في مجال تكوين أمة وانتشار الاسلام وفي مجال قيام دولة عظمى ، ونود أن نلفت نظر اولئك الذين يتشوقون في الوقت الحاضر لجمع شمل المسلمين واعلاء شان الامة الاسلامية الى مايلي :

١ ـ ان ثمة ظروف واجهت دولة الاسلام العظمى وعرضت بنيانها للتصدع وفرضت عليها أن تتمزق (١٤) هذا وقد تاتي ذلك أولا وقبل كل شيء من داخل تركيبها البشري ، ذلك أن أكثر من دعوة هدامة قد تاتت من خلال اثارة نعرات طائفية واقليمية وقومية ووطنية ، وقد استجابت بعض الاقوام الداخلة في تركيب الامة الاسلامية لهذه النعرات بدرجات متفاوتة ، وقد تضرر بذلك البناء البشري للامة الاسلامية ، واستطاعت الصيحات التي تعالت باي من هذه النعرات أن تتخذ منها مطية لتصعيد الولاء الضيق نحو الاقليم أو الطائفة على حساب الولاء الاوسع نحو الفكرة التي تشد البنيان البشري للامة الاسلامية ، ومن ثم كان التمزق وكان الانقسام وكانت الدويلات بدل الدولة الموحدة ، ومع ذلك فان الانقسام والتمزق لم يكن يعني اي نقصان في حجم الولاء نحو الاسلام كما لم يعني التخلي عن احساس بمفهوم الاخوة الاسلامية أو النيل من العلاقة العضوية بين الدين والدولة ٠

٢ ـ ان التمزق والانقسام وقيام دول اسلامية بدل الدولة الواحدة جاء في وقت تصاعدت فيه

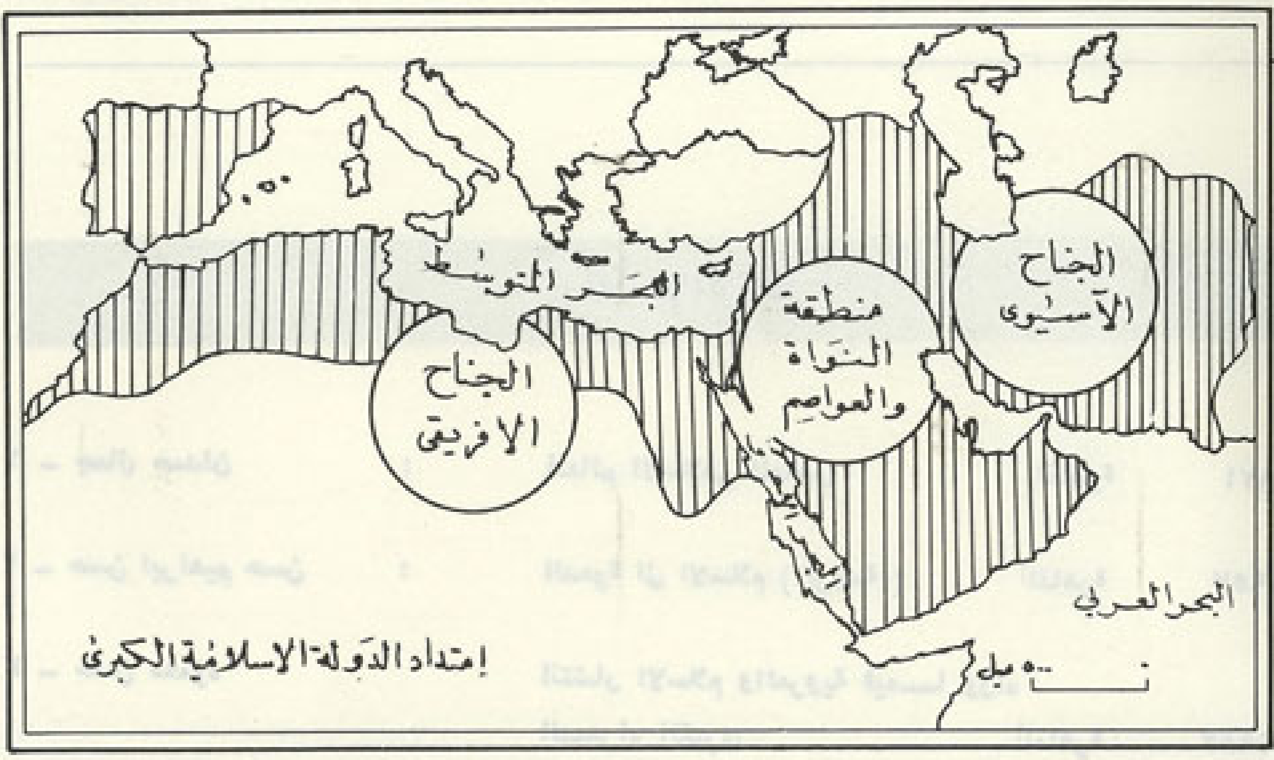

امتداد الدولة الاسلامية الكبرى

تحديات من الخارج في وجه الدولة الاسلامية والاسلام وامته الكبرى ، وربما بدأ ذلك منذ أن كان التحرك الصليبي حينا والتحرك المغولي حينا آخر ، وعندئذ لم تعد سياسة دولة الاسلام عاملة بكل الحسم لمواجهة هذا التحدي متخذة من استراتيجية الهجوم مطية للدفاع ، ومن ثم توالت التحديات وتصاعدت من بعد ظهور القوة الاوروبية وممارسة الكشف الجغرافي وقيادة مسيرة التقدم في كل المجالات ، وأتاح الكشف الجغرافي عن طريق رأس الرجاء الصالح للتحديات الاوروبية أن تطوق العالم الاسلامي ، ثم كانت مرحلة تالية مارست فيها الدول الاوروبية المتطلعة الى التفوق وانتزاع الانتصار على المسلمين تحركات ضيقت الخناق على العالم الاسلامي وكان تضييق الخناق مقدمة لمرحلة ثالثة شهدت الاستعمار وهو يغزو دول العالم الاسلامي ويعمق التمزق السياسي والاقتصادي فيما بينها •

٣ ـ ان الواقع السياسي والاقتصادي الذي تعيشه دول العالم الاسلامي اليوم قد اقترن الى حد ما بتحول من التمزق الى التشتت ، ذلك أنها لاتنتهج سياسات متوافقة في مواجهة المشكلات بل قد يصل الامر الى حد التعارض والتضاد بشكل يسلب المسلمين والارض الاسلامية والدول الاسلامية كل المزايا الاستراتيجية التي كانت من وراء التفوق والمكانة العظمى لدولة الاسلام الموحدة ، ونذكر انه على الرغم من وجود فعلي على أرض تحتل القلب من جزيرة العالم ومن اشراف مباشر على البحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج في مساحة أشبه ماتكون بتقاطع أهم طرق التحركات الدولية فان دول العالم الاسلامي التي قامت على أنقاض الدولة الاسلامية العظمى قد تضررت كثيرا ، وعادت الميزة الاستراتيجية لكي تصبح عبئا ثقيلا يغرقها في متاعب ومشكلات ويمكن للقوى الكبرى من فرض التأثير المباشر أو غير المباشر عليها وابقائها في اطار الضعف والاستكانة وبشكل يستنزف قدراتها منفردة أو مجتمعة كدول في المجتمع العالمي •

أهــم المراجع :

١ ـ جمال حمدان : العالم الاسلامي المعاصر القاهرة ١٩٧١

٢ ـ حسن ابراهيم حسن : الدعوة الى الاسلام (ترجمة) القاهرة ١٩٥٧

٣ ـ حسن محمود انتشار الاسلام والعروبة فيمـا وراء الصحراء الكبرى القاهرة ١٩٥٧

٤ ـ صلاح الدين الشامي : دراسات في الجغرافية السياسية الاسكندرية

٥ ـ جغرافية الوطن العربي الكبير الاسكندرية ١٩٧٠

جغرافية العالم الاسلامي الاسكندرية ١٩٧٤

٦ ـ فيليب حتي : تاريخ العـرب (ترجمة) الاسكندرية ١٩٥٢

الهوامش والمصادر

(١) اقرأ عن مقومات الدولة في كتاب (دراسات في الجغرافية السياسية) للباحث ، الاسكندرية ١٩٧٣ من صفحة ٣١ ـ ٩٦

(٢) هناك علاقة حقيقية بين هذه الدراسة وبين تاريخ الاسلام في مرحلة من أهم وأعظم مراحله ، ومع ذلك فانها تمثل النظرة الجغرافية التي يطل من خلالها الجغرافي على حقبة من حقب التاريخ ، وقد لايعنيه متابعة الاحداث بقدر ما تعنيه الاضواء التي تكشف عن الخلفية الجغرافية التي تأتت على مسرح هذه الاحداث ، وتعبر عن معنى البعد الجغرافي الحاكم لمسيرتها ٠

(٣) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم ـ اسرائيل ـ الاسكندرية ١٩٧٣ م الفصول ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠

(٤) سابتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة (ترجمة د/ السيد يعقوب بكر) صفحة ٥٩

(٥) موسكاتي : الحضارات السامية القديمة صفحة ١٤١

(٦) راجع ماكتبه الباحث عن أنواع الكيانات البشرية في الدولة في كتابه (دراسات في الجغرافية السياسية) صفحة ٨٦ ـ ٩٠

(٧) يمكن أن نصف هجرة بعض المسلمين بتوجيه من الرسول صلى الله عليه وسلم الى الحبشة بأنها كانت من قبيل اللجوء الى هذه الديار والاعتصام بها ، ومع ذلك فلم يكن هذا اللجوء يحمل في معناه ومغزاه أي طابع سياسي لانه حدث قبل أن يكون للاسلام دولة ٠

(٨) راجع ماكتبه الباحث في كتاب جغرافية العالم الاسلامي ـ العالم الاسلامي والتحديات صفحة ٣٩١

(٩) اقرأ عن نظرية سير ماكندر عن توازن القوى ومدى الصراع بين القوى الاعظم وهي القوة البرية في قلب جزيرة العالم والقوة البحرية على أطراف جزيرة العالم ، وتجد عرضا موجزا لها في كتاب دراسات في الجغرافية السياسية صفحة ١٠٦

(١٠) لم تكن دولة الاسلام حبيسة في موقع القلب من جزيرة العالم بل كانت لها مزايا القوة البرية ومزايا القوة البحرية ، ومن ثم لم تكن ثمة فرصة لدى قوة أخرى أن تنازعها مكانتها الاعظم ٠

(١١) ظاهر الموقع الجغرافي الامة الاسلامية وجهد الصفوة الممتازة من أبنائها ، وأتيحت لهم فرصة استيعاب الخبرات الحضارية من خارج الدولة الاسلامية مثل الخبرات الحضارية الهندية والخبرات الحضارية الصينية والخبرات الحضارية اليونانية ومن داخل الدولة الاسلامية · ومن ثم استطاعوا أن يسهموا بالاضافات المثمرة المفيدة ·

(١٢) كان الاسلام بمثابة الاطار الذي يجمع شمل الاقوام لكي يؤلف منها أمة ، ومع ذلك فان مصالح بعض الاقوام المشتركة تملى عليهم في الوقت الحاضر ترابطا في كيان بشري مركب يملأ الحيز في دولة ، ونضرب لذلك مثلا بالامة البريطانية التي تصور ترابطا بني على مصالح مشتركة تجمع اربعة اقوام هي الانجليز والاسكتلنديون والايرلنديون وأهل ويلز (اقرأ عن ذلك في كتاب دراسات في الجغرافية السياسية صفحة)

(١٣) ارنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون) طبعة ١٩٥٧ صفحة ٧٩

(١٤) لم تفطن حكومة الدولة للخطر الناجم عن استنفار النعرات في الوقت المناسب ولم تتصرف بالاسلوب الامثل لمواجهة هذا الخطر ، وربما كان الاستنفار نمطا من أنماط الرفض لسيطرة العرب ، ويرى بعض الباحثين أن هذا الرفض كان من وراء الاحداث التي أنهت حكم الدولة الاموية ، ويرى هذا البعض أيضا أن نكبة البرامكة ومحاولة العرب اقتناص الفرصة للسيطرة من جديد قد أتاح نقطة التحول التي توالت من بعدها صيحات الرفض ومن ثم أفلحت في استنفار النعرات وتصعيدها ، ولو أن حكومة الدولة الاسلامية قد لجأت الى مواجهة الموقف الجديد من خلال تحول من حكم مركزي الى حكم لامركزي أو تخلت عن نمط الدولة الموحدة الى نمط الدولة الاتحادية لقطعت خط الرجعة على هذا الخطر ، بمعنى انها كان يجب أن تتخذ من الاتحادي وسيلة لاحتواء التحدي ولاعطاء مجموعة الشعوب الاسلامية فرصتها لتأكيد ذاتها الاقليمية وشخصيتها ·

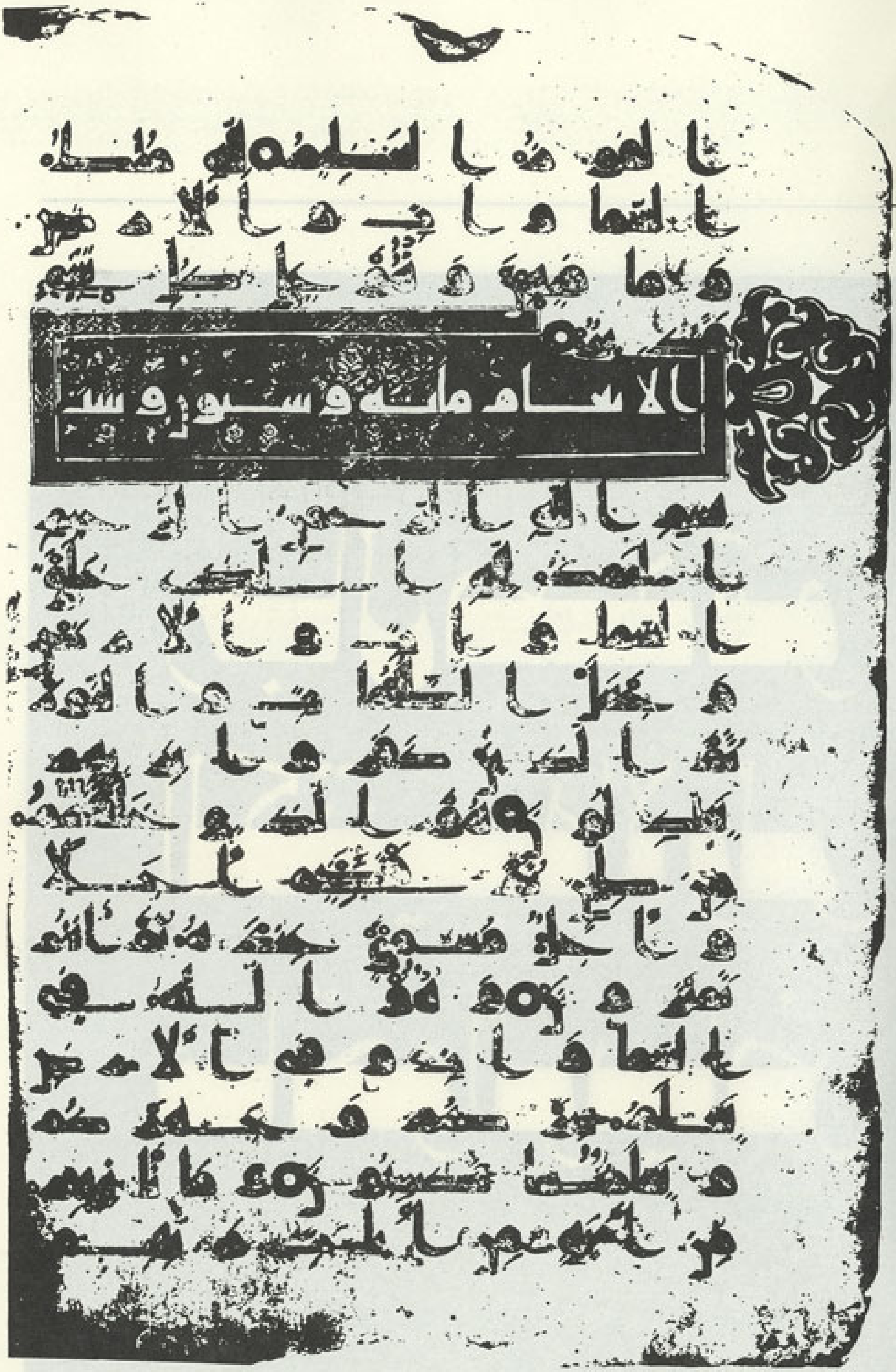

صفحة مصحف بدار الكتب المصرية يرجع للقرن الثالث الهجري